الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٧٠ — ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 170

Lundi - 5 - 10 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٧٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ رجب سنة ١٣٥٥ — ٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

سعد زغلول

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وقال صاحب سر (م) باشا : ألقى إلىّ الباشا ذاتَ يوم أن (سعداً) مُصبِّحُنا زائراً [1] ، وكانت بين الرجُلين خاصةٌ وأسبابٌ وطيدة . وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشُّعلةَ فى بركانها ؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التى جعلته رجلاً فى إحدى يديه السِّحرُ وفى الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغة من كلمات اللغة يُرَدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه فى تعريفه ، ولا تصح الكلمةُ عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلةً لا تشبهها القُبلات ، إذ مُثلت لى من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعتْ على تلك اليد . إن ابنَ الرجل العظيم إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدرَه مدركاً عظمته ، يشعر حين يقبِّل يدَه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التى يقبلها ، ويجد فى نفسه اتصالاً كهربائياً بين قلبه وبين سرِّ وجوده ،

(١) يقال صبحه (بتشديد الباء) أى جاءه صبحاً

ويَخُصُّه العالَمُ بلمسةٍ كأن قُبلتَه نبضتْ في الكون ؛ وكل هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يدَ سعد ، وزدتُ عليه شعوري بمثل المعنى الذي يكون في نفس البطل حين يقبل سيفَه المنتصر

وضحك لي سعد باشا ضحكتَه المعروفة التي يبدأها فمه ، وتتممها عيناه ، ويشرحها وجهُه كلُّه ، فتجد جوابها في روحك كأنه في روحك ألقاها

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له ابتسامةً كأنها كمالٌ يتواضع ، فيُحس كأن شيئاً غيرَ طبيعي يتصل منه بشيء طبيعي ، فينتعشُ ويثب في وجوده الروحيّ وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً أو كلَّها معاً . غير أن الرجلَ من الحكماء إذا تأمل وجهَ سعد وهو يضحك ضحكتَه المطمئنةَ المتمكنةَ من معناها القِرِ أو المنكِر أو الساخر أو أيِّ المعاني — حسب نفسَه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامة الفلسفية متكامةً كأنها مرة تقول هذا حقيق ، ومرة تقول هذا غير حقيق

إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنيٌّ إلا بعين فيها دلائلُ أحلامِها ، كأنما هو شخصُ فكرة لا شخص إنسان ؛ فاذا أنت رأيتَه كان في فكرك قبل أن يكون في نظرك ، فأنت تشهدُه بنظرين : أحدُهما هذا الذي تُبصِرُ به والآخر ذاك الذي تؤمن به

عبقريٌّ كالجمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُحرق ؛ ثائرٌ كالزلزلة فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرُجُّ ما حوله ؛ صريح كصراحة الرسُل ، تلك التي معناها أن الأخلاق تقول كلمتها

رجلُ الشعب الذي يُحس كلُّ مصري أنه يملك فيه ملكاً من المجد . وقد بلغ في بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى في الحياة ، وانزعوا هذا المعنى من الحياة

* * *

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما رجع من وداعه قال لي : والله يا بني لكأنما زاد هذا الرجل في ألقاب الدولة لقباً جديداً ؛ ثم ضحك وقال : أتدري ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟

قال : والله يابني ما من (باشا) في هذه الدولة يكون الى جانب سعد إلا وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) ...

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصاغر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ، وتقاصر الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء كفلان وفلان وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفه وتطرُّحه كأنه ظلُّ رجلٍ لا رجل

وقد أصبح قوةً عاملةً لا بد من فعلها في كل حيّ تحت هذا الأفق حتى كأن معاني نفسه الكبيرة تنتشر في الهواء على الناس فهو قوة مرسَلة لا تُمسَك ، ماضيةً لا تُرد ، مقدورة لا يحتال لها بحيلة

هذا وضع إلهي خاص لا يشبهه أحد في هذه الأمة كميدان الحرب لا تشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامر سعد في الثورة العرابية وخرج منها ولكنها هي لم تخرج منه بل بقيت فيه . بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ وتُصلح أغلاطها ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق . وبهذا تراه يغمُر الرجال مهما كانوا أذكياء لأن فيه ماليس فيهم ؛ وتراهم يظهرون الى جانبه أشياء ثابتة في معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العاتية

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة النصر وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة — حرمته القدرةُ الالهية النسل وصرفت نزعةَ الأبوة فيه الى أعماله التاريخية ، ففيها عنايتُه وقلبُه وهمومُه ، وهي نسل حيٌّ من روحه ، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حول أشباله

ولن يُذكر السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسُه إذا انقلب سياسياً ، فان المكانَ الخالي في الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لا رجل السياسة . وهذا هو السبب في أن سعداً يُشعِر الأمة بوجوده لذةً كلذة الفوز والانتصار وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء ؛ فاطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة ، فنسخ قوانين وأوجد قوانين ، وحمل الشعب على الاعجاب بأعماله العظيمة ، فنبَّه فيه قوةَ الاحساس بالعظمة فجعله عظيماً ، وصرفه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعَه فيه

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ، ولكن بالمقاومة مادام ذلك الغربُ بإزائه ؛ والفريسة لا تتخلص من الحلق الوحشيّ إلا باعتراض عظامها الصُّلبة القوية

وكم فى الشرق من سياسى كبير يجعلونه وزيرا فتكون الوظيفة هى الوزير لا نفس الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبةٍ ونصَّبوها فى كرسيه لكانت أكثر نفعا منه للأمة بأنها أقل شراً منه ....

يا بنى كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هى مسألة الشرق ، ولكن المسألة : من هو النبى السياسيُّ الذى يرضى أن يُصْلَب ....؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

صور سياحة

٢ – صروح باريس

وطرف من معالمها وآثارها

بقلم سائح متجول

دار الحديث على ظهر السفينة بينى وبين صديق ممن درسوا فى باريس وعرفوا كثيراً من معالمها وأحوالها ، فقال لى حين أعربت له عن آرائى فى باريس ومجتمعاتها وخواص حياتها الاجتماعية : « خذ باريس وحدها ، واترك من فيها »

وهى تفرقة فى موضعها ؛ ففرق بين باريس العاصمة التالدة التى تزخر بالربوع والمعاهد الأثرية والعلمية الجليلة ، وبين المجتمع الباريزى وخلاله ومظاهر حياته

وسنخص باريس بالحديث فى هذا الفصل ، ونحاول أن نعرض لمحة من معالمها ومعاهدها وآثارها العظيمة

باريس عاصمة القرون والأجيال المتعاقبة ؛ وإنك لتلمح فى ربوعها ومعاهدها هذا التعاقب فى القرون والأجيال ، فمن آثار رومانية وقوطية ، الى آثار العصور الوسطى ، ثم عصور الملكية الزاهرة وآثار الثورة ثم الامبراطورية والعصر الحديث ؛ وهذه الأجيال المتعاقبة هى فخر العاصمة الفرنسية ، وتراثها من أجل ما عرفت الأمم والعواصم التالدة

وهذا التعاقب فى العصور ظاهر الأثر فى باريس وفى أحيائها ، فباريس مدينة عظيمة شاسعة الأرجاء ولكنها تبدو كأنها عدة مدن متباينة شيدت فى عصور وظروف مختلفة ؛ فمن أحياء قديمة تغص بالشوارع الضيقة والمبانى العتيقة وتحمل أسماء تاريخية لا شك فى قدمها ، ومن أحياء جديدة تلمح أثر التجديد فى شوارعها وميادينها الشاسعة ، ومن أحياء مزجت بين القديم والجديد ؛ وهذا التباين فى تخطيط العاصمة الفرنسية وفى أحيائها يجعل منها مدينة قليلة التجانس والتناسق ، بيد أن مسحة من الجلال والعظمة تطبع هذه المجموعة الضخمة المتباينة من المعالم والربوع

وفى باريس من المشاهد التاريخيـة الجليلة ومن المواطن والأحياء العظيمة ما يقتضى وصفه فصولا بأسرها ؛ ولقد خصت هذه المواطن ببعض الكتب الساحرة من قلم المؤرخ لينوتر وغيره ؛ وسنحاول أن نمر مسرعين بطائفة من هـذه المشاهد والمواطن التى كتب عنها الكثيرون من قبل

إن أروع المشاهد التاريخية الباريزية فى نظرنا هو قصر اللوفر وذخائره الفنية الجليلة ؛ فهذا القصر القديم الذى يجثم كالخلود على ضفاف السين ، يمثل أجيالاً من عظمة فرنسا وعظمة الملوكيـة الفرنسية ، وفى أبهاء اللوفر وقاعاته الرائعة تذكر عصور آل ڤالوا وآل بوربون : عصور فرانسوا الأول وكاترين دى مديتشى ، وهنرى الرابع ، ولويس الرابع عشر ، بكل ما فيها من روعة ودسائس ومنافسات ، ومآس دموية ، وأيام زاهرة

وتضم أجنحة اللوفر اليوم عدة من المجموعات الفنية الجليلة ، ولا ريب أن متحف التصوير الذى يشغل عدة أبهاء شاسعة من اللوفر هو أعظم هـذه المجموعات وأغناها ؛ فهنالك تمثل أقدم مدارس التصوير منذ بدء عهد الأحياء إلى أحدثها ، وهنالك مجموعات حافلة لأعظم أساتذة التصوير الايطاليين مثل ليوناردو داڤنشى ، ولى تسيان ، ورافائيل سانزيو ، وبورجينو وغيرهم ، وأعظم الأساتذة الأسبانيين مثل موريليو وفيلاسكيز ، وهنالك أيضاً مجموعات حافلة لأعظم المصورين المحدثين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وربما كانت مجموعات عصر الأحياء التى يحتويها اللوفر أعظم وأغنى مجموعات من نوعها بعد مجموعات قصر

الفاتيكان ، بل يلوح لنا أن فى اللوفر مجموعات لبعض الأساتذة أغنى من نظائرها فى الفاتيكان : وفى اللوفر أيضاً مجموعات فاخرة من التحف والحلى الملوكية التى تبهر الأبصار بجمالها وروعتها ؛ وبه أجنحة ومجموعات فنية أخرى تقتضى عدة زيارات لاستعراضها وتأملها

وما زال قصر اللوفر يحتفظ بروعته الملوكية سواء فى أبهائه وغرفه الداخلية أو فى واجهاته الخارجية ، ومازالت ساحاته الشاسعة وأبراجه القائمة تحتفظ بجلالها القديم ؛ ومما يبعث الى الأسف أن ساحة اللوفر الكبرى مفتوحة من جانبيها لمرور السيارات الضخمة (الأومنبوس) ذهاباً وإياباً ، وفى ذلك تشويه للساحة وللقصر ذاته ، وإن كان فيه تسهيل للمرور ، واختصار للطريق

وفى قلب باريس عدة قصور تاريخيـة شهيرة أخرى نذكر منها قصر اللكسمبور الذى يقع فى حديقة اللكسمبور الشهيرة ، ويشغله الآن مجلس الشيوخ (السينا) ، وقصر بوربون الذى يشغله الآن مجلس النواب ؛ والقصر الملكى (الباليه رويال) الذى بناه الكردينال ريشليو لاقامته ، وتركه بعد وفاته للملك ، وسمى الباليه رويال ؛ وقصر التويلرى الذى بدأته كاترين دى مديتشى ، وأتمه هنرى الرابع ؛ ولهذه القصور التاريخية كلها سير وذكريات شهيرة تملأ صحفاً حافلة من الأدب الفرنسى ؛ وهنالك أيضاً قصر « الألزيه » الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر ، والذى جعل مقراً لرآسة الجمهورية فى العصر الأخير

وثمة أثران يحوطهما جلال مؤثر ، ويثيران إلى المتأمل شجناً خاصاً ، هما « دار الانفاليد » و « البانتيون » ؛ وتحتوى « دار الانفاليد » أو دار العجزة ، التى تقع فى شمال غربى باريس فى ميدان شاسع جداً ، فضلاً عن المستشفى الذى يخلد اسمها وصفتها ، على « قبر الأمبراطور » أو قبر نابليون . ويقع القبر فى طرفها الشمالى ، وهو عبارة عن حظيرة مستديرة تغطيها قبة عظيمة ، وقد نصبت فى وسطها منصة رخامية عاليـة ، ووضع فوقها تابوت فاخر من المرمر الأحمر القاتم يحوى رفات الأمبراطور ؛ ونصبت حول المنصة مجموعة من الأعلام التاريخيـة التى غنمها الأمبراطور فى مختلف المواقع الشهيرة ؛ مارنجو ، فاجرام ، أوسترلتز ، إيلو ، يينا وغيرها ؛ ومن بين هذه الأعلام علم كتب عليه « موقعة الأهرام » ، ولكن ليست عليه كتابة عربيـة تدل على أصله ؛ والحق أن منظر قبر الأمبراطور يبعث إليك كثيراً من الروع والاجلال لذكرى ذلك الذى ملأت حياته وأعماله العسكرية الباهرة مرحلة كاملة من تاريخ أوربا بأسرها

وأما البانتيون ، فهو كما تعلم مقبرة الخالدين ؛ وقد كان فى الأصل كنيسة تسمى « سانت جنفياف » ، حولت أيام الثورة إلى مقبرة قوميـة للعظماء ؛ ويقع البانتيون فى شارع سوفلو فى الحى الجامعى على مقربة من الكليات ؛ ومازال البانتيون على وضعه الأول كنيسة فخمة تزين جدرانها طائفـة من الصور الدينية البديعة ؛ ولـكن جلال البانتيون فى أقبيته السفلى ؛ ففى تلك الأقبية التى قسمت إلى أروقة وحظائر مختلفة يرقد عدة من أبناء فرنسا الخالدين من القواد والكتاب والمفكرين ؛ وربما كانت أسماء فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وزولا ، وجوريس، هى أعظم الأسماء رنيناً فى أقبيـة البانتيون ؛ بيد أن هنالك أسماء كثيرة من القادة والزعماء السياسيين أيام الأمبراطورية الأولى والأمبراطورية الثانية : هذا تابوت الماريشال ناى ، وهذا إناء يحتوى قلب ليون جامبتا ... وهذا تابوت جان جوريس الذى اعتبر يوم مقتله فى سنة ١٩١٤ خائناً للوطن ، واعتبر بعد ذلك بعشرة أعوام من أبطال الوطن ونقلت رفاته إلى البانتيون ؛ وهذا تابوت ڤولتير ؛ ولـكن هل عثر الخلف حقاً برفات ڤولتير ؟ لقد ثار حول ذلك جدل منذ أعوام ، وقرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الكبرى أنه قد عثر على هيكل عظمى فى بعض أقبية كنيسة فى روان ، يظن من شكل جمجمته وفكيه أنه هيكل ڤولتير ، خصوصاً وأنه يروى أن الذى تولى دفنـه هو عمه راعى هذه الكنيسة ، وأنه دفنه فى بعض أقبيتها ، ولـكن دليل البانتيون رفض أن يستمع إلى هـذه الرواية ويؤكد بكل قواه أن رفات فولتير ترقد فى التابوت المرقوم باسمه !

وكما أن باريس غنية بالقصور الملوكية القـديمة ، فهى غنية أيضاً بالكنائس الأثرية ؛ ومن أقدم وأشهر كنائس باريس كنيسة « نوتردام » التى يرجع بناؤها إلى القرن الثانى عشر ، والتى يقترن اسمها وسـيرتها بكثير من الحوادث التاريخية ؛ وكنيسة « سانت شابيل » التى تقع فى « الباليه دى چستيس » (دار العدل) ، والتى بناها لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ؛ وهذه الكنيسة الصغيرة هى حلية ساطعة بين الآثار البارزية ، وقد بنيت على الطراز القوطى بافتنان بارع ، وزينت بنقوش

ذهبية رائعة ، وجعلت من طبقتين ؛ وكنيسة المادلين الفخمة التى تقع فى الميدان الشهير المسمى باسمها ، والتى ترجع إلى القرن الثامن عشر ؛ وكنيسة سان سلبيس التى تقع فى نهاية حى سان جرمان على مقربة من اللوكسمبور ، وقد أقيمت أمامها فى الميدان المسمى باسمها نافورة أثرية تحوطها تماثيل أربعة لبوسويه وفنيلون وفلشييه وماسيون ؛ وهنالك غير ذلك من الكنائس الأثرية مما يضيق المقام عن ذكره

وهنالك ، على مقربة من «سانت شابيل» ، فى الناحية الأخرى من دار العدل يوجد صرح يثير اسمه وذكرياته فى النفس شجناً وأسى : ذلك هو سجن « الكونسيرجيرى » الشهير الذى كان أيام الثورة مسرحاً لطائفة من المآسى المؤثرة . كم شهدت تلك الأبراج والغرف الحجرية الضيقة من محن وآلام ، وكم سكبت بين تلك الجدران القاتمة من دموع ؟ أجل هذا هو سجن « الكونسيرجيرى » الرائع الذى نقلت إليه مارى انتوانيت لتمضى أيامها الأخيرة قبل المحاكمة ؛ لقد كانت هذه الكهوف المظلمة تغص أيام الثورة بالمحكوم عليهم ، ومنها ينقلون إلى العالم الآخر . هذه غرفة مارى انتوانيت ، وهذا هو الأثاث الحقير الذى استعملته ملكة فرنسا زهاء شهرين ، وهذا هو مخدع الزينة الأخيرة الذى قص فيه شعرها وأعدت لتنفيذ حكم الإعدام : وهذه هى بعض مراسلات ووثائق رسمية تتعلق بالمحاكمة . . . . أجل هذه هى الآثار المادية لمأساة من أروع وأشنع مآسى التاريخ ! وإن القلب لينكمش أسى حينما يتأمل هذه الآثار المحزنة ويذكر ذلك العهد الدموى — عهد الأرهاب — بكل محنه وجرائمه وفظائعه

وماذا نذكر أيضاً من صروح باريس العظيمة ؟ هنالك الأوتيل دى ڤيل ، أو « دار البلدية » بماضيها الحافل ؛ ولقد كانت « الأوتيل دى ڤيل » فى مستهل الثورة مستودعاً للسلاح ، فاقتحمها الثوار يوم ١٤ يوليه ، وأخذوا منها السلاح الذى هاجموا به الباستيل : غير أن الدار التى تقوم اليوم ليست هى الدار القديمة ، وإنما هى دار جديدة أنشئت فى مكانها وباسمها ؛ وهنالك دار الأوبرا ، وهى محدثة ترجع إلى نحو سبعين عاماً فقط ؛ ولكن توجد ثمة طائفة أخرى من المسارح القديمة أشهرها مسرح « الاوديون » الذى أنشىء فى أواخر القرن الثامن عشر ، والذى ما زال يحتفظ بطابعه القديم ، ويشرف بحناياه وأعمدته القصيرة القائمة على الميدان الذى سمى باسمه من ناحية ، وعلى اللوكسمبور من الناحية الأخرى

وأما ميادين باريس فهى من أعظم وأروع ما تزدان به العواصم الجليلة : ؛ وربما كان أعظمها وأبدعها ميدان «الشانزليزيه» الذى لا تكاد تلم العين بجنباته الشاسعة ، والذى تنساب من إحدى ضفتيه حدائق الشانزليزيه الرائعة ؛ وميدان « الأتوال » المستدير الشاسع الذى يقوم فى وسطه قوس النصر ، وتنساب من أطرافه عدة شوارع هامة سميت بأسماء قادة فرنسا ، مثل لازار هوش ، وكليبر ، وفوش ؛ وقوس النصر من أعلام الآثار البارزية يثوى تحت ظلاله « الجندى المجهول » ، ويحج إليه الزائرون أفراداً وجماعات فى خشوع وإجلال ؛ وميدان الشان دى مارس حيث يقوم برج إيفل الشهير ، وميدان الكونكورد حيث تقوم مسلتنا المصرية ، وميدان فندوم الذى يقع بجواره ويزينه عمود من أعمدة الحرية ، وميدان المادلين الذى تتفرع منه أهم الشوارع التجارية ؛ وميدان الباستيل الذى كان يشغله سجن الباستيل قبل الثورة ، ويدل الآن عليه عمود الحرية القائم مكانه

وتزدان باريس بعدة من الحدائق والبساتين الشهيرة ، وفى مقدمتها حديقة اللوكسمبور الشاسعة ، التى تزينها بعض البحيرات الصغيرة وتماثيل لملوك فرنسا وملكاتها ؛ وبستان مونصو ؛ وحدائق الاليزيه وغيرها ؛ وأروع من ذلك كله غابة بولونيا التى تقع فى غربى باريس ، وهى بسيط شاسع من الأحراج النضرة تتخللها طرق نظمت أبدع تنظيم ، بعضها للسيارات ، وبعضها للفرسان ، وبعضها للسائرين ؛ وتقدم هذه الغابة الشهيرة بطرقها ومتنزهاتها منظراً يأخذ بالألباب ، ويذكى الخيال ، وينعش المشاعر ؛ ولقد كانت غابة بولونيا وما زالت متنزه الأرستوقراطية ، وملتقى المحبين ، يؤمون طرقاتها وأحراجها الساكنة فى أمن وطمأنينة ؛ ولم نر فيما رأينا من متنزهات أوربا وأحراجها النضرة ، أبدع منظراً من هذه الغابة الساحرة التى تحمل طابع المنابة الشاملة فى سائر أنحائها

هذه لمحة سريعة عن صروح باريس ومواطنها الأثرية العظيمة ، ولسنا ندعى أنها لمحة شاملة ، وكل ما هنالك أننا ذكرنا أهم ما يسترعى عناية السائح المتجول ؛ أما الحديث عن الصروح والمعاهد العلمية فقد رأينا أن نستبقيه إلى فصل خاص

(يتبع) (***)

الجانب الصـــوفى

فى الفلسفة الاسلامية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلســفة الإسلامية بكلية الآداب

— ٤ —

لم يقف تصوف الفارابى عند المدرسة الفلسفية ، بل تمداها إلى مدارس أخرى صوفية فى الاسلام . وعلى رأس هذه المدارس يجب أن نضع مدرسة الأشراقيين التى عاشت فى بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر . ومؤسس هذه المدرسة هو السهروردى أو الشيخ المقتول المتوفى سنــة ١١٩١ م . وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفرق الفلســفية التى تأثر بها عامة وبرجال مدرسة الاسكندرية وفلاسفة الاســلام السابقين بوجه خاص . ويظهر أن سعة اطلاعه ولدت فيه رغبة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين[١] . فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة تمد الأنسانية بمـا فيها من ثمار وخيرات . أميدوقل وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطوطاليس وبوذا وهرمس ومزدك ومانى ، وإن انتسبوا الى شعوب مختلفة ، هم أبناء الأنسانية أولا وبالذات ورسل السلام والاصلاح[٢] . وعلى الجملة زهاد الهند وفلاســفة الاغريق وحكماء العراق يسعون وراء غاية واحدة ، ويعملون على نشر نظرية ثابتة ، وينطوون تحت لواء فلسفة واحدة ، هى الفلسفة الأشراقية . ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الـكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى هى عماد العالم المـادى والروحى . والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها[٣] . فالفلســفة الأشراقية تعتمد إذن على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر مزدكية ومانوية

وإذا كان العالم فى جملته قد برز من أشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والأشراق . فإذا ماتجردنا عن اللذات الجسمية تجلى علينا نور إلهى لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الانسانى؛ وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى الروح المقدسة أو على لغة الفلاســفة العقل الفعال[١] . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التى تعيننا على كشف الغيب فى حال اليقظة والنوم . وليس للتصوف من غاية إلا هـذا الارتباط ؛ والأشراقيون يسعون اليه ما اسـتطاعوا وكثيراً ما ينعمون به . أما الأنبياء فهم فى اتصـال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردى : « إن النفوس الناطقة من جوهر الملـكوت ، وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها ، فاذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القـدس ، وتتصل بأبيها القدس وتتلقى منه المعـارف ، وتتصل بالنفوس الفلـكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات فى نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نفس »[٢]

فالفلسفة الاشراقية التى دعا اليها السهروردى متأثرة فى بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابى ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعة إلى العالم العلوى ؛ غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها أو التصوف هو كل شىء فيها ، فى حين أنه لدى الفارابى ليس إلا قطعة من مذهب متنوع الأجزاء . هذا إلى أن الأشراق لا يقنع بالاتصال بالعقل الفعال وحده ، بل يطمع فى الاتحـاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار[٣] ؛ فـكأن السهروردى حين دعى للاختيار بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابى رأى أن يجمع بينهما ، وأن يقول بالاتصال والاتحاد معاً ؛ وهذه نزعة توفيق أخرى تتفق مع روحه العامة

هذا التصوف العقلى المبنى على فكرة الفيض يبـدو كذلك عند صوفى وفيلسوف آخر من رجال القرن الثالث عشر . ونعنى

---

(١) Van den Bergh, Suhrawardî, dans Encyc. de l. Islam

(٢) السهروردى ، حكمة الأشراق ، ص ٣٧١

(٣) السهروردى ، هيا كل النور ، ص ٢٨ — ٢٩ و ٣٢

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ — ٤٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٦ — حكمة الاشراق — ص ٣٨١

به ابن سبعين المفكر النقادة الذى لم يُدرس بعد دراسة كافية ، ولا ثقة به على الرغم مما فى آرائه من حصافة وفى أفكاره من عمق ودقة . ولعل أكبر مصـدر نعتمد عليه فى تعرف نظرياته هو المراسلات التى دارت بينه وبين فردريك الثانى ملك ألمانيا وأمبراطورها المتوفى سـنة ١٢٥٠ . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة إلى أن اهتدى إليها المستشرق الايطالى أمرى سنة ١٨٥٣ فى مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان : الرسـائل الصقلية(١) . وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها فى الصحيفة الأسيوية الفرنسـية المستشرق الدنمركى المشهور مهرن(٢) . وقد وقفنا بأنفسنا على هذه المخطوطة فوجـدناها مملوءة بالعلامات والملاحظات الدقيقة ، وما أجدرها بأن تطبع وتنشر . وكلنا يعلم ما كان عليه فردريك الثـانى من رغبة فى العلم وحب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه الى ابن سبعين عالم صقلية وفيلسوفها فى ذلك العهد أربعة أسئلة متعلقة بقدم العالم ، والمقولات العشر وما وراء الطبيعة فى غايته ومبادئه ، وطبيعـة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماماً المشاكل الهامة التى كانت تشغل المفكرين عامة وتلاميذ أرسطو على الخصوص فى ذلك العصر . وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصـة ؛ وفى مقدور من يرجع إليها معتمداً على بعض المصادر الأخرى أن يكوّن فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية . ولسنا هنا بصدد هـذا العرض المطول ؛ وسنكتفى بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوعنا . فالله فى رأى ابن سبعين أصل العقول المتصرفة فى الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والأنعام ، والعقـل الفعال وهو أحدها يدبر شؤون الأرض ويمد الكائنات بصورها النباتية ، فهو مصدر النفوس البشرية على الاطلاق ؛ وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهى ميالة دائماً إلى الاتصال به ؛ ولا يحول دونها وذلك إلا أدران الجسم وشهواته . فاذا ما تفرغ الانسان للدراسـة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال(٣)

(١) Amari, Journal asiatique, 1853, 5e série, t. I, Fév-mars.
(٢) Mehren, Ibu Sab'in, Correspondance avec l'empereur Frédéric II dans Journal asiatique, t. XIV (1879).
(٣) Ibid., p p. 459 — 360, 423 — Massignon, Rècueil, p. 133.

هـذه النظرية ، كما نرى ، تكرار حرفى لما قاله الفارابى وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطى كسابقيه من فلاسفة الاسلام وإن كان ينقدهم نقداً مراً(١) . وقد بنى تصوفاً عقلياً على أساس فلسفى فهو صوفى على طريقة الفلاسـفة(٢) ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والالهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية ؛ فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما الحلاج ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطاً روحياً معنوياً(٣) .

فتصوف السهروردى وابن سبعين مؤسس على دعائم فلسفية . وفى رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ويفيض عليه بالخلق والابداع . وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ؛ فهو موجود أزلاً بنفسه ودون حاجة إلى أى موجد آخر وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذن عرضى وبالتبع . وعلى هـذا ليس ثمت إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز . هـذه هى نظرية وحدة الوجود التى اعتنقها جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الفلسفية فى الاسـلام . وقد تكونت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وانتشرت بعد ذلك فى بلاد الأندلس والمشرق . ومن أكبر أنصارها محيى الدين بن العربى المتوفى سـنة ١٢٤٠ ميلادية ، وجلال الدين الرومى المتوفى سنة ١٢٧٣ ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس(٤) . ويصمد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ نحن إلى الفارابى(٥) . وإذا كان الله هو الموجود الحق وجب أن تتلاشى فيـه سائر الموجودات الأخرى . وهنا يختلط التصوف بالفاسفة اختلاطاً كبيراً . فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب فى شخص

(١) Ibid., p p. 129 et suiv.
(٢) Mehreu, Journal asiatique 145.
(٣) Ibid., p. 390.
(٤) Nicholson, Thc Legacy of Islam, p p. 223 et suiv.
(٥) Massignon, Recueil, p. 187.

الفلسفة وجد ملجأ لدى الصوفية . وكثير من الأفكار الفلسفية المقوتة تبناه الصوفية وأبرزوه فى صور أخرى مقبولة ولو إلى حين . وفى رأينا أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ التفكير الفلسفى الاسلامى فى العصور الأخيرة دراسة كاملة منزلاً عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها ، وما أن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام . فالسهروردى قتل بأمر صلاح الدين ؛ وابن سبعين انتحر فى مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه فى الغالب ؛ واتهم معاصره ابن العربى بالالحاد والزندقة من كثير من أهل السنة (١)

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) Mehren, Journal Asiatique, (1879), p p. 338 et suiv. C. de Vaux, Les Penseurs de l'Islam, t. IV, p. 232.

فى الأدب المقارن

الفكاهة

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة ، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها ، كانت فى الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس ، وفى الأدب مظهر الرقى والحيوية ، وفى الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع . والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد ، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويراً من مرآة الجد المحض ؛ والأدبان العربى والانجليزى حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها ، يتفقان فى بعضها ويفترقان فى بعض آخر ، تبعاً للأحوال الاجتماعية

وإذ كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية قلّت آثارها فى الأدب العربى حين كان أقرب إلى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام . ففى أدب ذلك العهد نرى آثار اللَّسَن وحضور البديهة وقوة العارضة ، ونخطئ مظاهر الدعابة الدمثة والعبث الرقيق . وما نحسب إلا أن الرسول (ص) الذى كان يمزح ولا يقول إلا حقاً كان يمتاز من معاصريه — فى جملة ما امتاز — بلطف الروح وعذوبة الدعابة ، فقد أُثِرَتْ عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبئ عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجلد والكفاح ، ولم يُؤْثَرْ عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل إلى الفكاهة

فلما استوطن العرب الأمصار ، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار ، وتذوقوا الحضارة والترف ، ظهرت نتائج كل ذلك فى أدبهم ، وكثرت الفكاهة فى الشعر والنثر ، بل ظهرت طوائف من المجان المتظرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادّين من رجال العلم والدين ، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانئ :

دع عنك ما جدوا به وتبطل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

ومن أظهر مواضيع الفكاهة فى العربية التبرم بالثقلاء ، والنيل من البخلاء ، ووصف الأكولين والمطفلين ، والتهكم بمدّعى العربية من الموالى ، وعبث المجان بالمتخشعين المتورعين ، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين ؛ وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب فى ذلك العهد ، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحدوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه

وتفنن المتهكمون بالبخلاء ، فتحدثوا عن وعودهم المطولة ، وحجابهم الغلاظ ، وهباتهم الضئيلة : كالطيالس التى تتجنى الذنوب على الرياح ، وتعرف الطريق إلى الرفاء ، من كثرة تردادها عليه صباح مساء

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار :

ارفق بعمرو إذا حركت نِسْبَتَهُ فانه عربى من قوارير
ما زال فى كير حداد يردده حتى غدا عربياً مظلم النور

ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى أبواب من الفكاهة خاصة ، لعلها تستثير روح العبث فى النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم ، كالمتحذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهها . فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالمتصفين بهما ، وما زال

المرء بخير حتى يدّعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ؛ والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة إلى الاعتراف بفضل الأغيار ، دع عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ؛ هنالك تثور النفوس وتلجأ إلى أقسى أسلحتها وهو التهكم

فشكسبير يسخر على لسان هملت من متحذلقى الممثلين فى عصره ، ويجعل الثائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم إلى مهاجمة شاعر لغثاثة شعره ؛ والجاحظ يقول فى صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوسعَ مَن لم يَحمَدْ من المغنين والمغنيات تهكما ، وصوّر أحدهم أقبح صورة فى قوله :

وتحسب العينُ فكّيه إذا اختلفا
عند التنغّم فكّىْ بغل طحان

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعه الخاصة : كالتهكم بالمدعين النبل الاجتماعى ، والمحْدَثى النعمة ، والمتشدقين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ؛ ذلك أن المجتمع الانجليزى — على كون نظامه الحكومى ديموقراطياً — هو أرستقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعالياً لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ؛ وبعض العصاميين الذين يؤثّلون ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون إلى الانغمار فيهم ، ويتشبهون بهم تشبهاً يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية . أما التشدق بضخم الكلمات فرجعه إلى تكوُّن اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحمون لجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحياناً

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ؛ ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللفتات ، ومضحك المواقف والشخصيات ؛ ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخريات هى غاية فى الامتاع والبراعة

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ؛ وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوّران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى ، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاهاً اجتماعياً ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، إذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية بمساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام

وهناك لون من الفكاهة يرمى به المتفكه إلى ضد ما يقول : فيتقنّع بالجد وهو يبنى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدحِ والقدحَ يريد ، ويغالى فى التفخيم قاصداً التهوين . ويُدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية irony ، وربما أمكن تسميته « التَّنَدُّر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضاء فى أيدى الناقدين لأحوال المجتمع . ومن فرسانه المجلين (سويفت) . أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ؛ ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرذ ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فإن به عضة فى الذَنَب

وقول بشار وقد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء : « إذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه . على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يُطلب به التظرف ويعوزه الصدق والعمق . فالانحاء على النفس بالتثريب ليس خلقاً فى الانسان بله الأديب ، والذى يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغامزه وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه إلا مدحاً بما يشبه الذم ، ولو رماه غيره بما يرى به نفسه طلباً للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد إنكار

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزاً في المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظاً عظيماً من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درساً وتصويراً . ومن أبرع من كتبوا في ذلك (پوپ) الذي نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسية أودعها وصفاً دقيقاً لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة في مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، إلى كل صغيرة وكبيرة في حياتها المنزلية والخارجية في أسلوب متهكم شائق

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة في النطق أو الكتابة ؛ وقد كان هذا العبث اللفظي شائعاً على عهد شكسبير الذي ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك في الانجليزية واستثقل . أما في العربية — حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائماً مكانة عالية — فظل هذا الضرب من التفكه مألوفاً . فأبو نواس يوافق مدعياً للنسبة العربية على انتمائه إلى طي ، ولكن مع إضافة نون وباء في أول الكلمة . ويقول في بخيل :

وما خبزه إلا كآوى يُرَى ابنه ولم يُرَ آوى في حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة في الشعر العربي في صدر العصر العباسي ، وبرز في مضمارها في أجيال متتالية طبقاتٌ على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومى ؛ وتمتاز في شعر الأوَّلَيْن بالاستهتار ، وفي شعر الثاني بالصرامة ولذع السخرية ، وفي شعر الأخير ببراعة التصوير . وازدهرت الفكاهة في الشعر الانجليزي في العهد الكلاسي أي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذي اشتد فيه الأثر الفرنسي في الأدب والمجتمع الانجليزيين ، وكان من فحول الفكاهة فيه سويفت وپوپ ودريدن

والحق أن ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزي بالأدب العربي ؛ ففيه انضوى الأدب حيناً تحت جناح الملكية وسار في ركاب الحاكمين ، واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمر في جو المدنية وأهمل جانب الطبيعة ، وتأنق في اللفظ وأغرب في المعنى ، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلةً لما كان بين جرير والفرزدق ، وبشار وحماد ، والبديع والخوارزمى ، من مصاولات ومقارعات ؛ وولع الأدباء بالوزراء والقواد ، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون ، وفريق ذريعة للنقد الاجتماعي والاصلاح

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له أفعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد ، وبوّأ غريمه « عرش الغباوة » في جو من الجلبة والمراسيم والمواكب والشارات مماثل لتتويج الملوك ، وجعله يلي ذلك العرش معهوداً اليه من شاعر غبي من شعراء الجيل السابق لجيلهما . ولهذا القصيد الساخر مماثل في النثر العربي شديد الشبه به ، وإن يكن قد كُتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعني العهد الذي كتبه الصابي على غرار عهود الخلفاء والأمراء إلى عمالهم ، على لسان مطفل أكول إلى آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به علي بن أحمد المعروف بعليكا ، إلى علي بن عرس الموصلي حين استخلفه على إحياء سننه ، واستنابه في حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، ويجري معها في سوادها وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقم ، وجودة الهضم »

وتتسم الفكاهة في الأدب الانجليزي على العموم بالعفة التي هي سمة الأدب كله كما سبق ذكره في كلمة سالفة ؛ أما في الأدب العربي فتهوى أحياناً في يد الهجائين إلى حضيض السباب ، وفي يد المجان المستهترين إلى وهدة الأفحاش . وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف المتناقضات من آراء الناس وأقوالهم ؛ وفي العربية يتناول العبث الخَلْقَ بجانب الخُلُق . فدعابات ابن الرومى ملأى بذكر أعضاء الجسم من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبه من حدب وصلع وعور . ويُشبِّهُ المعبوثُ بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنّياً يُوحى إليه :

إذا خاطب الجنى قرداً مشنَّفاً فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

وفي كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة ، وسما بهم قصدهم في الحياة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحياتهم بالجد والعبوس ، منهم في الانجليزية ملتون وووردزورث وتنيسون ، وفي العربية المتنبي والشريف الرضى ؛ وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة يستغرق نشدانُها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر اليها ، أو مُثُل عليا يُحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها

فخرى أبو السعود

نابليـــــون
وخطواته الأولى فى سبيل المجد
للأستاذ عبد المجيد نافع

لا يعرف التاريخ رجلاً اختلف الناس فى تقديره والحكم عليه ، مثل نابليون بونابرت . كان ولا يزال له أنصار ومعجبون يضعونه فى طليعة العظماء الذين أنجبهم العالم ، ويسبغون عليه أثواب الفضائل الانسانية التى ينبغى أن يتحلى بها الرجل العظيم . وكان ولا يزال له خصوم وحاقدون يجردونه من جميع الفضائل ، أستغفر الله بل يخرجونه من صفوف الانسانيـة ويسلكونه فى عداد الوحوش . فاذا كان «تين» يعترف له بالعبقرية الحربية ، والقدرة الادارية ، وينادى بأنه صب فى قالب لم يصب فيه أحد من قبل فى التاريخ الحديث ، وأن لا سبيل إلى وجود ضريب له إلا بأن نعود بالذاكرة إلى شخصيات الاسكندر وهانيبال ويوليوس قيصر - بعد أن يعطيك «تين» هذه الصورة الرائعة عن نابليون تراه يسارع إلى إدراجه فى عـداد الوحوش الخارجة عن دائرة الانسانية . وإذا كان بعض مؤرخى الانجليز ينادى بأعلى الصوت وملء الفم أن نابليون كان أعظم قائد حربى ، وأعظم رجل إدارى عرفه التاريخ ، فان بعض المرضى بمخالفة الاجماع ، والمولعين بالآراء الغريبة ، يجحدون عبقرية نابليون الحربية ، ويجترئون على الدعوى بأن جميع المعارك الحربية التى عقد له فيها لواء النصر ، انمـا يرجع الفضل فيها الى قواده ، بل الى رجال مغمورين كانوا يعملون تحت رايته ، وأن التاريخ هو الذى أضفى عليه ذلك المجد الحربى ، حتى جعله أشبه الناس بالشخصيات الخيالية ، بل أقرب إلى الأساطير منه إلى الشخصيات التاريخية ؛ بل ترى نفراً يمعنون فى الاغراب فيزعمون أن نابليون لم يوجد ، وأن الاساطير هى التى خلقت تلك الشخصية الخيالية ، وصاغت تلك الخرافة النابليونية ، وأن شيئا من التحقيق التاريخى لا يلبث أن يمزق الأستار عن تلك الأوهام العالقة بالأذهان !

ومهما يكن من شىء ، فليس فى التاريخ شخصية شغلت أذهان الكتاب والباحثين مثل شخصية نابليون . وعلى الرغم من وفرة ما كتب عنه ، فان البحث فى تاريخه لم تخلق جدته ؛ ذلك بأن حياته العاصفة الحافلة بالعظائم تجمع بين روعة القصص وجلال الحقائق التاريخية

على أن ذلك الرجل العظيم لم يجد طريق المجد أمامه معبدة ، بل اجتاز الصعاب ، وتخطى العقبات ، وخاض غمرات الأهوال . ولقد تجهمت له الاقدار فى أول مرحلة من مراحل حياته ، ولم تبتسم له إلا بعد أن كاد يهوى فى غمرة اليأس ، ولم يفرض وجوده وكفايته على خصومه إلا بعد أن لقى منهم شتى ضروب العنت والمناهضة

ولا يتورع خصومه عن اتهامه بمجافاة وسائل الشرف فى سبيل بلوغ غاياته ، وتحقيق لباناته ؛ بل لا يتعفف الوالغون فى عرضه عن الجهر بأنه توسل بزواج جوزفين لتسلم قيادة الحملة الايطالية

هل وصل نابليون بكفايته وحدها أم أنه كان يدين بمبدأ : الغاية تبرر الوسائل ؟ وزواجه بجوزفين . هل أملته المصلحة ، أم كان مبعثه الحب ؟

مها يزعم الذين يشوهون نابليون ويهدرون آدميته ، فقد كان إنساناً بأوفى معانى الكلمة ، له قلب يصبو للنساء ، وعواطف تهوى اليهن ؛ وإذ كان فى ربيع العمر ، فقد ترجم عن هذه العاطفة باعلان رغبته فى الزواج ؛ وكان يغبط أخاه جوزيف على توفيقه فى الزواج ، وطلب يد أخت زوجته فلم تبادله حبا بحب ، فتولاه اليأس منها ؛ على أنه لبث يحمل لها فى صدره أصدق عواطف الحب ، فلما بات رب التاج والصولجان ، وصاحب الهيل والهيلمان ، زوجها ببرنادوت ، وبوأ ديزريه كليرى التى أخفق فى حبها ، عرش هولندا

واستطاع نابليون أن يندمج فى الأعمال الحربية ، ويعمل فى قسم الطبوغرافيا بلجنة السلام العام ؛ فكيف كان سبيله إلى الوصول ؟

لا نكتم الحق ، ولا نكذب التاريخ ، فقد دفع ثمناً غالياً فى سبيل ما وصل إليه ، وتوسل بذوى النفوذ وأصحاب السلطان وأقوياء الساعة لبلوغ ما بلغ ؛ ولعله بذل من عزة نفسه ، وطامن من كبريائه ، وأراق من ماء وجهه ، رجاء أن يطفئ شهوة الطموح

التى كانت تضطرم نيرانها بين جوانحه

ومهما حاول فى رسائله أن يكتم آلام نفسه ويخفى جروح قلبه ، فقد كان بائساً من الوجهتين الأدبية والمادية . ولقد طالما رآه الراؤون يضرب على غير هدى فى طرقات باريس ، يسير بخطى هوجاء مضطربة ، يحمل فوق رأسه قبعة تكاد تحجب عينيه ، ويرتدى سترة رمادية أخذت فيما بعد مكانها فى التاريخ . وإذا رأيت ثم رأيت ذراعين طويلتين تجنحان إلى الطول ، وتضربان إلى السمرة ، وقد جردها صاحبهما من القفاز زعماً منه بأن تلك نفقة لا غناء فيها ولا طائل تحتها ، ورأيت فى قدميه حذاء قد أسرع إليه البلى ، وما كان يروعك منه إلا النظرة الهائلة ، والابتسامة الخلابة اللتان تشرقان على مظهر ينم على مرض فى الجسم والنفس معاً

وكذلك كان نابليون يتهادى ببؤسه وحزنه فى الطرقات . ولقد قالت مدام بورين إنه شهد معهم رواية فى مسرح ، وكان النظارة جميعاً ينفجرون بالضحك ، فما راعها من نابليون إلا أن تراه وحده فى مثل صمت القبور

نعم ، فلقد كان فى ذلك الحين يحلق بخياله فى جو غير جو المسرح ، ويجهد قريحته فى ابتكار وسيلة للعيش ، إذ كان يرقب من ساعة لأخرى فصله من عمله . ولقد خيل إليه أنه شق طريقاً جديدة بالاتجار بتصدير أدوات المكاتب ؛ على أن تصدير صندوق كتب إلى مدينة « بال » ما لبث أن أيقظه من حلمه اللذيذ إيقاظاً خشناً ! ثم داعب الأمل بأن يأذنوا له فى الشخوص إلى تركيا لتدريب جيش السلطان

وما كان يلمح فى الأفق بارقة أمل ، وذهبت جهوده فى تولون وإيطاليا أدراج الرياح ، لأنه منى بوزير للحربيـة اسمه « أوبرى » لا يقوى على فهمه ، ولا يدرى من الأمور الحربيـة كثيراً أو قليلاً . فأما الذين كانوا يظلمونه بحماً يتهموهم « باراس » و « فربرون » و « ماربيت » ، وقد حارب تحت لواء الأولين ، وانتشل الأخير من بين مخالب الدهماء فى مدينة تولون ، فقد كانوا يغذونه بالوعود

على أن بارقة النجاح كانت تبدو فى الأفق الذى لا يرقبـه نابليون ؛ وكان « بواسى دنجلاس » هو الذى أخذ بيده فوضعه فى الموضع الذى تتجلى فيه مواهبه لتولى القيادة العامة

وفى شهر يونيه من عام ١٧٩٥ ضاق « بونتيكولان » ذرعا باضطراب ادارة الحرب فى لجنة السلام العام ، فأشار عليه « بواسى دنجلاس » أن يستعين بخبرة جنرال عائد من ايطاليا وهو كفيل بأن يبذل له أثمن النصائح وأغلاها

فلما كان الغد قصد اليه نابليون ، فما هاله إلا أن يرى الضعف والهزال ماثلين فى شخصه . ولقد وعى التاريخ قوله : « رأيت شاباً أصفر اللون ، مكفهر الوجه ، مقوس الظهر ، تبـدو عليه مظاهر الضعف والمرض » . على أن « بونتيكولان » قد استرعى نظره أن ذلك المخلوق الضعيف المهزول بصير بشؤون الحرب ، فطلب اليه أن يدون كتابة ما ألقاه أمامه شفهياً ، وأن يرفع اليه تقريراً . وكرت أيام ، والتقى « بونتيكولان » « ببواسى دنجلاس » فقال له : « لقد رأيت رجلك الذى بعثت به إلى ، ويلوح لى أنه مجنون ، إذ لم تحدثه نفسه بالعودة إلى ، وأكبر الظن عندى أنه وقع فى روعه أنك تسخر منه . كلفه بالحضور إلى غدا »

وتحت ضغط « بواسى دنجلاس » والحاحه قدم نابليون تقريره عن الحملة الايطالية ، فما راع « بونتيكولان » إلا علو كعبه فى الفنون الحربية ، فطلب اليه أن يعمل معه ؛ ولـما سأله عن مطالبه أبدى رغبته فى العودة إلى جيش المدفعية برتبة قائد فرقة ، فأنـكروا عليه الطموح إلى تلك القيادة وما يزال فى الخامسة والعشرين من عمره

وقد كان « ليتورنير » هو الذى وقف عقبة فى سبيل تولى نابليون ذلك المركز ، ومع ذلك لم يحمل له حفيظة فى قلبه ؛ فما لبث أن أصبح امبراطورا حتى عينه مديرا ثم مستشارا

وإن شئت أن ترى آية حية على وفاء نابليون فاذكر أنه ما كاد يصير قنصلاً حتى استقدم « بونتيكولان » ، فلما قدم إليه قال له : إنك اليوم المستشار ، فاعتذر بعـدم بلوغه الأربعين ، فقال إذن فأنت مدير فى بروكسل أو فى أى بلد تختاره ، ذلك بأنى حريص على ألا أنسى خدمة قدمت إلىّ

وكان « بونتيكولان » ضامناً كفيلاً لأحد أصدقائه ، فلما أفلس تحمل بدين يبلغ ثلثمائة ألف فرنك ؛ فلما بلغ سمع نابليون ضـيقه استقدمه إلى قصر التويلرى ولامه فى رفق على كتم ضيقه عنه ، ثم مالبث أن وفى له دينه

ولا نملك أن نترك تلك الصورة الرائعة للوفاء دون أن نضع

إلى جانبها صورة للجحود والكنود والعقوق الأسود ؛ أجل ففي جلسة ٢٢ يونيو من عام ١٨١٥ كان « بونتيكولان » الذي أغدق عليه نابليون ، بل الغارق إلى أذنيه في نعيم نابليون ، أول من خذل نابليون ، وعارض في بقاء الأمبراطورية !!!

وبينا كان بونابرت يرقب بفارغ الصبر أن تعينه لجنة السلام العام على رأس البعثة الحربيــة المزمع إرسالها إلى تركيا ، إذا به يتلقى والدهشة ملء نفســه ، والأسى ملء فؤاده ، خبر تجريده من رتبته العسكرية ، تحت ستار الدعوى بأنه رفض قبول المركز المعين له في جيش الغرب

وكذلك تكون سخرية الأقدار !

وآمن نابليون بأن من المستطاع إلغاء قرار التجريد ، لكن لا مندوحة له عن التماس المعونة من أقوياء اليوم ، المسموعي الكلمة والاشارة ، فجد في ظلبهم ، وتلمس العون من جانبهم

والتمس نابليون العون عند مدام تليان فحملته كتاب توصية إلى المسيو لوفوف ، فأجاب سؤلها وأذن لنابليون بالقماش الذي يصنع منه سترته التي أخذ منها البلى كل مأخذ

وطوع لنابليون ضميره أن يتوسـل بمدام تليان لينتفع بجاه « باراس » ونفوذه . وإن تنس فلا ينبغي أن تنسى أن تلك السيدة كانت متبوئة عرش الجمال في باريس ، وأن صالونها كان الكعبة التي يحج إليها العظماء والكبراء ، وأن نابليون كان زري الهيئة تكاد تقتحمه العيون ؛ ولذلك لم يكن يسترعي نظر أحد ، أو يلقى إليه المجتمعون بالاً ، وما كان يخوض معهم في الحديث إلا نادراً ؛ على أنه إذا تكلم تكشف عن بديهة حاضرة وذكاء متوقد

وفي ذات مساء اشتغل نابليون في صالون مدام تليان عرافاً ! أي والله عرافاً « يشوف البخت » ويجري على سبيل العرافين ولهجتهم ! نعم لقد أخذ نابليون بيد مدام تليان يقلب النظر في كفها وينبئها بالمستقبل ، ويفيض عليها بطائفة كبيرة من الخيالات

وكم كانت صورة رائعة تحتاج الى ريشة المصور ! فهذا عاهل فرنسا في المستقبل ، والرجل الذي دانت له أوروبا وثل عروشها عرشاً فعرشاً ، ودك حصونها حصناً فحصنا ، وقوض ممالكها واحدة بعد أخرى ؛ هذا الضعيف المهزول ، الأنكد الأغبر ، الزري الهيئة ، الخلق الثياب ، يقرأ المستقبل في كف ملكة الجمال في ذلك العصر ! فما أبعد الفارق وأعمق الهوة بين تلك المرأة المشرقة التي تخطر في مطارف النعيم ، وبين ذلك البائس الذي لا يكاد يخفي بؤسه ، ولا يستطيع أن يكتم حزنه وبثه من سخرية الأقدار ! وأية فكرة كانت تجول في ذلك الرأس المتعطش للمجد وصاحبها « يشوف البخت » التماساً لوجوه المعونة ! وإذا رأيت ثم رأيت جمعاً من السيدات يشهدن هذا المنظر وهن يضحكن ملء أفواههن من النبوءات التي يرتجلها نابليون ارتجالاً ومظهره الذي يدعو الى الرحمة ويبعث على الرثاء ! أنظر الى تلك السمراء الجميلة إنها جوزفين بوهارنيه . . . ولن تمضي خمسة شهور حتى تصبح قرينة للعراف الذي « يشوف البخت » . ولن تمر ثلاث سنين سوياً حتى تمسي شبه ملكة لفرنسا ، وما تلبث غير بعيد حتى يهرع البابا إلى باريس ليضع على رأسها تاج الأمبراطورة على الفرنسـيين ! تلك هي جوزفين التي ارتسمت صورتها في أفق المستقبل النابليوني من الليلة التي كان القائد الصغير يشتغل فيها عرافاً « ويشوف البخت »

كل أولئك لم ينفذ اليه نظر نابليون ، وهو يقلب كف مدام تاليان ، على رغم بعده ونفوذه ، ولو استطاع أن يشق حجب المستقبل ، وينبيء حقاً بما سيكون ، لملأ قلوب الحاضرات سروراً وأفواههن ابتسامات

لكن المستقبل علمه عند ربي ، والغد لله لا لنابليون ولا لغير نابليون

(البقية في العدد القادم)

عبد المجيد نافع
المحامي

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

— ٧ —

وأخيراً بدأت السعادة تدخل إلى قلب متشنيكوف ، فخصماؤه كانوا اقتنعوا بنظريته ولو بعض اقتناع ، والبعض كفّ عن مخاصمته لقلة جدواها ؛ ذلك أنه كان أصبر على التجربة منهم وأبعد عن الملل فيها ، وأنه كان أقدر على الكلام وأطول نفَسا فيه ؛ ثم هو فى حجاجه أعلى صوتاً وأبعد صدى . فلما طلع عليه القرن العشرون استطاع أن يجلس فى سلام ويقعد إلى مكتبه فى اطمئنان فيكتب كتاباً كبيرا ضمنه كل الذى وجده فى أمر الحصانة . فكان رسالة ضخمة تحسبه قضى عمره فى إنجازها . وكتبها باسلوب رائع يحسده عليه فلوبير Flaubert[1] ؛ وجاء فيها بآلاف الحقائق ، وصوّر كل حقيقة منها تصويراً واضحاً جذاباً ؛ ولوى تلك الحقائق لية جميلة ظريفة لتجتمع كلها عند قصد واحد هو تدعيم نظريته وتعزيز آرائه فيها . كانت رسالته أشبه بقصة أبطالها الألوف المؤلفة من تلك الخلايا الأفّاقة التوّاهة — فاجوسات حيوانات الأرض جميعاً

وحبّبه صيته الذى كسبه فى الحياة ، فصار يلتذّ لذة عميقة بكونه حيّاً ، وقد كان قبل ذلك بعشرين عاماً يعاف الدنيا ويبغض العيش ، ويكره الناس أجداداً وأحفاداً ، ويرثى لنفسه أنه كائن ، حتى كان من ذلك أن قال لزوجته أُلجا : « إن من الاجرام طلب النسل ، وأن آدمياً يَمُدّ فى حبل الوجود بما يخلّفه من آدميين لا يفعل ذلك وهو خالص الذمّة بريئها » . أما الآن وقد ابتسمت له الحياة فقد عطف على أطفال القرية : قرية سفر Sevres التى عاش بها ، وربّت على رؤوسهم وفرق فيهم الحلوى فأسموه « بابا نوئيل »[1] . قال : « ما ألطف العيش وما أجمل الوجود ! »

ولكن ما السبيل إلى استبقائه ، ما السبيل إلى التشبّث به وهو يُفلت من يديه هكذا سريعاً ؟ سبيل ذلك واحدة وحيدة — سبيل ذلك لا ريب العلم

كتب يقول : « ما المرض إلا حادث عارض من أحداث الحياة » . وقال : « إن العلاج لا يكفى (وهو لم يكتشف قط علاجا) ... فلا بد من تفهّم هذا المآل الذى يؤول إليه الناس تلك الغاية التى ينتهون إليها جميعاً . لا بد من تفهّم ذلك الدافع القاهر الذى يدفع بالانسان الى الشيخوخة فالموت على حين هو أحب ما يكون للعيش وأكثر تشبثاً بالحيـاة » . عندئذ نفض متشنيكوف يده من الفاجوسات وأخذ يبتدع علوماً جديدة يكون من غرضها فهم غاية الحياة وتفسير الموت ، وإن أمكن فالافلات منه ؛ وكان أحد هذه العلوم يبحث فى الشيخوخة فطلب له اسماً طنّاناً فكان جيرنتولوجيا Gerontology . وأسمى علم الموت تاناتولوجيا Thanatology ، وما كان أفظعها من علوم . ولكن الآراء التى تضمنتها كانت مما تتفتح بها الآمال ويزدهر عليها الرجاء فى الأيام . وأجرى متشنيكوف فيها تجاريب ، وسجل فيها أموراً كانت بعيدة عن الصحة ، قليلة الحظ من الدقة ، بحيث يتحرك لها لوفن هوك قلقاً فى مضجعه ، ويرغى بستور منها ويزبد فى قبره أسفاً على أن كان أذنَ لهذا الروسى المتبجّح أن يخطو خطوة واحدة فى معمله . ومع هذا ، ومع كل هذا ، فان طريقة استئصال داء من أقبح الأدواء المكروبيّة إنما اهتُدى إليها من هذه التجارب غير الدقيقة

خشى متشنيكوف الموت خشية شديدة ، ولكنه استيقن كارهاً أن الموت حتم لا مفر منه ، فانصرف يبحث عن أمل فى موت سهل يسير . وكان واسع القراءة شديد النهم فيها ، فذكر أنه جاء فى قراءاته على تقرير عن سيدتين عجوزين بلغت بهما الشيخوخة حداً رغبتا فيه عن الحياة وتمنتا الموت كما يتمنى أحدنا

(١) هو جستاف فلوبير الكاتب الفرنسى الشهير ولد عام ١٨٢١ ومات عام ١٨٨٠ . اشتهر أول ما اشتهر بمؤلفه « مدام بوفارى » عام ١٨٥٧ (المعرب)

(١) هو القديس نقولا . عاش حول نهاية القرن الثالث للميلاد فى آسيا الصغرى . ويتخذه الروس قديساً راعياً ، وهو كذلك راعى البحارة واللصوص والعذارى والأطفال ، وتجرى الخرافة بين أطفال أوروبا بأنه هو الذى يحمل إليهم هدايا عيد الميلاد يدخل بها إلى منازلهم من مداخن الدفايات . والفرنسيون يسمونه بابا نوئيل . والانجليز فاذر كرسماس أو سانتا كلاوس

ويطلب السرير بعد يوم مجهود مكدود . فصاح متشنيكوف : « هذا يدل على أن الانسان فى غريزته ميل الى الموت كما فيها ميل إلى النوم . فالمرجو الآن أن نبحث عن طريقة تطيل الحياة فى صحة وقوة حتى تنكشف فينا هذه الغريزة فنطلب القبر طوعاً »

وأخذ يذرع الأرض ويشبرها بحثاً عن أمثال أخرى لهاتين السيدتين المبخوتتين ، فزار عجائز فى بيوتهن ، وجرى وراء شيخات درداوات صماوات يمتحنهن تسآلا وهن لا يكدن يسمعن ما يقول . وذهب مرة كل المسافة من باريس إلى روان Ronen من أجل شائعة أشاعتها الجرائد ليلقى سيدة قيل إنها بلغت الستة بعد المائة من عمرها . ولكن للأسف لم يلق فيمن لقى إلا كل امرأة تقوى على الحياة وتعتز بها ، ولم يجد أحدا يشتهى الموت اشتهاءه النوم كما اشتهته السيدتان فى الأقاصيص التى قرأها ، وبرغم هذا صاح قائلاً : « إن فى غريزة الخلق حب الموت واشتهاءه » ، أما الوقائع التى تنقض دعواه فما كانت تقلق باله أبدا

ودرس الشيخوخة فى الحيوانات ، وأرسل له الناس كلاباً شيبا وقططا هدها الكبر ، ودأبوا على إرسالها اليه ، ونشر بحثا جديا فى ببغاء خرق العادة فعاش سبعين عاما . وكان عملك سلحفاة ذكرا من سلاحف البحر أسكنه حديقة داره ، وكان له من العمر ستة وثمانون عاما ، فألف بينه وبين سلحفاتين أنثيين فى مقتبل شبابهما فنتج عن هذا التأليف نسل عديد من سلاحف صغيرة ، ففرح متشنيكوف بذلك وامتلأ سرورا حتى فاض ، فقد كان دائم الخوف أن تذهب الشيخوخة بلذائذ الحب . وقد ذكر ما وقع من السلاحف : « إن الشيخوخة لا تتضمن هذا الضعف البالغ الذى يتصوره الناس »

ولكن لا بد من مدافعة الشيخوخة على كل حال فكيف السبيل إلى صدها ؟ وكان عالم إسكندناقى يدعى إدجرن Edgren درس تصلب الشرايين ، فاقترح أن هذا التصلب هو علة الشيخوخة ، وارتأى أن من أسبابه شرب الكحول وداء الزهرى Syphilis وطائفة أخرى من الأدواء

وحدث متشنيكوف نفسه : « إن تصلب الشرايين علة الشيخوخة ، وما عمر المرء إلا عمر شرايينه ! هذا حق لا مرية فيه » . اعتزم أن يدرس كيف أن داء الزهرى يصلب الشرايين وكان ذلك عام ١٩٠٣ . وكان متشنيكوف قبض جائزة مقدارها ٥٠٠٠ فرنك . وكان رو Roux نال جائزة أوزيرس الكبرى Osiris ومقدارها ١٠٠٫٠٠٠ فرنك . وكان الفرق كبيراً بين الرجلين ، والبون واسعاً بين طرائقهما فى البحث ، وكان رو أقوم الرجلين طريقة ، ولكنه لزم متشنيكوف دائماً وربط حبله بحبله واطمأن إليه رغم جموحه . اختلف الرجلان اختلافاً كبيراً ، ولكنهما كانا سيين فى قلة حرصهما على المال ، فاتفقا على أن يضما كل هذه الفرنكات ، وثلاثين ألفاً أخرى ابتزها متشنيكوف تملقاً وملاطفة من بعض أثرياء الروس ، وأن ينفقاها جميعاً فى بحث هذا البلاء التناسلى المسمى بالزهرى ذلك بأن يصيبا به بعض القردة Apes ، ثم يبحثا فيها بعد ذلك عن جرثومته ثم يتدرجان من هذا إلى طريقة لمنعه فعلاجه إن وجدا إلى ذلك سبيلا . وفوق كل هذا أراد متشنيكوف أن يدرس فيه كيف تتصلب منه الشرايين

واشتريا بالمال قردة ، وأعانهما الحكام الفرنسيون بالكنغو الأفريقى على صيد القردة فبعثوا أولاداً من أهل السواد يجوبون الغاب ويمشطون الاحراج فى طلبها ، ولم يمض طويل من الزمان حتى امتلأت حجرات واسعة فى معهد بستور بأصوات الشمبانزى والأوران أوتان ، وامتزج صراخ هذه بصريخ قردة الهندوس المقدسة ومواء الماكاكس المضحك الصغير Macacus cynemolgus (١) ولم يلبثا أن وقعا على أمر خطير . وكانت تجاربهما لبقة بارعة ، وكان بها حسن نظام ووضوح لم يعهدا فى تجارب متشنيكوف . وأخذ يتردد على معملهما طائفة من مناكيد الناس أصابها الزهرى جديثا ، ومن أحد هؤلاء لقحا قرداً فنجحت فيه التلقيحة الأولى وسرى فيه الداء . ثم قضيا بعد ذلك أكثر من أربع سنين فى عمل شاق ينقلان الداء من قرد إلى قرد ، ويبحثان عن مكروبه الصغير الدقيق الخداع فلا يجدانه . ثم أخذا يضعفان سم الداء الذى استخرجاه وفشلا فى رؤية المكروب فيه ، وأخذا يضعفانه بالأسلوب الذى اتبعه بستور فى إضعاف جرثومة الكلب رجاء أن يخرجا من ذلك على لقاح بقى منه . وماتت القردة من النيومونيا وبالسل موتة شنيعة ، ووجد بعضها الفرصة إلى الهرب فهرب . وبينا متشنيكوف يجرح القردة لينقل سم الزهرى إليها فى غير خفة يد كبيرة انقضت عليه تعضه

(١) كل هذه فصائل من القردة واختيارها فى البحث لأنها أقرب ما تكون فى جثمانها شبهاً بالانسان (المترجم)

وتجرحه . ثم قام متشنيكوف بتجربة غريبة إلا أنهـا تَنُمّ عن ذكاء كثير : خدش أذن قرد وسقاه فى هـذا الخدش من سمّ الزهرى ، وتركه أربعا وعشرين ساعة ، ثم عاد إليه فقطع أذنه ، ثم امتحن جسمه فلم يجد بأى عضو منه أثراً من داء الزهرى

عندئذ صاح متشنيكوف : « إن معنى هذا أن جرثومة الداء تتريّث ساعات فى الموضع الذى تدخل منه إلى الجسم ، وفى الانسان نعلم من أى عضو من أعضائه يدخل الجرثوم ، ونعلم فوق ذلك متى يدخل فيه ، إذن فلعلّنا نستطيع أن نقتل الجرثوم ، عند مدخله من جسم الانسان قبل أن ينتشر فيه »

ثم قام فأجرى تلك التجربة الكبرى ذات الأثر العمليّ الواسع فى أبحاث المكروب ، أجراها بعد كل هـذا الكلام الطويل العريض الذى قضى السنين يقوله ويكتبه فى تعليل حصانة الانسان ، وأجراها وإلى جانبه رو يؤازره ويلح عليه باعادة كل اختبار يأتيانه للتأكد منه . وفى هذه التجربة اخترع متشنيكوف مرهم كلورور الزئبق Calomel الذى به اليوم يطارد داء الزهرىّ فى جيوش البر وجيوش البحر فى كل قطر من أقطار الأرض : أخذ قردين وجرحهما ، ثم أعداهما حيث الجرح بمادة للزهرىّ جاء بها صبيحةً من إنسان ، وبعد ساعة ذلك جرح أحد القردين بالمرهم وترك الآخر ، وأخذ بقية زمنه يرقبهما ، فسَلِم المرهوم وظهرت أعراض الداء فظيعةً بشعة على الآخر المتروك

ثم عاود متشنيكوفَ جنونُه الغريب القديم ، فلما تملّكه نسى نَذْره الذى كان وأغرى طالب طبّ شاب يُدعَى مازونيف Maisonneuve بأن يتطوع له ، فلما رضى جاء به فى مجتمع محكّم من أكابر رجال الطب وعلمائه فى فرنسا ، وفى وسط هذا الجمع الموقّر وقف هـذا الطالب المقدام ونظر إلى جلده وهو يجرح ست جراحات طويلة ، ونظر إلى هذه الجراحات الخطيرة وجرثوم الزهرىّ الخطير يُحَكّ فيها . وكان مقداراً من الجرثوم أكثر كثيراً من المقدار الذى يدخل جسم الرجل الذى يصاب بالداء بالطريقة المألوفة فى الحياة . واحتمل الطالب بقوة مصيره المخوف : رجلاً بشعاً مبثوراً منفّط الجسم مأكوله ، ثم يجيئه الجنون ، ثم يجيئه الموت

وجَرح متشنيكوف فى الوقت نفسه وأعدى بالداء قرداً وشمبانزى ، واصطبر ساعة يملؤه إيمان قوى ، فلما انتهت قام يحكّ المرهم فى جراح الشاب ، ولم يفعل ذلك لا فى الشمبانزى ولا فى القرد . فأما الشاب فنجا فلم تظهر عليـه بثرة واحدة من بثور الداء ، وأما القردان فجاءتهما العاقبة المحتومة بعد ثلاثين يوماً : نتيجةٌ لا ريبة فيها ونصر مبين

وقامت قيامة الأخلاقيين ومنهم بعض الأطباء يَلْحَون متشنيكوف فيما صنع . قالوا : « إن داء الزهرىّ عقوبة ينالها الآثم تكفيراً عن إثمه ، وخشيتها تردع المتردّدين . فهذا العلاج الهيّن السهل لهذا الداء يُزيل العقوبة ويذهب بالخشية فلا يكون منـه إلا إشاعة الخطيئة فى الناس » . فأجابهم متشنيكوف : « إنى حاولت فوجدت السبيل إلى منع هـذا الداء أن يمتدّ ، فقيل إنى أسأت إلى الأخلاق ، ولكن الأخلاق والأخلاقيّين عجزت قُواهم عن منع الداء أن ينتشر ، وأن يصاب به بطريق العدوى البريئة أبرياء منه لم يجنوه ، فصار من الاساءة إلى الخُلُق الكريم أن نجد السبيل فلا نمنع انتشار هذا الداء الوبيـل . . »

— ٨ —

وبينا هو فى هذا كان يتلمّس الطرق ويختبط الخباط ويحلم الأحلام عسى أن يجد سبباً آخر لتصلّب الشرايين ، وإذا به يخترع هذا السبب الآخر — ولا أظن أن أحداً يود أن يقول اكتشفه(١) . قال إن هذا السبب هو : « تسمم الجسم من ذات نفسه بانحلالات تعفّنية تحدثها بشلات وحشية فى أمعائنا الغلاظ . هذا هو سبب لا شك فيـه لتصلب شراييننا ولشيخوختنا قبل الأوان » . ودبر اختبارات كيميائية يستدل بها على التسمم الذاتى للأجسام ، وكانت اختبارات فظيعة . قال : « إن أعمارنا تطول كثيراً لو لم يكن لنا هذه المِعى الغليظ ، بل إن سجل الطب يخبرنا أن رجلين قطعت منهما هذه الأمعاء فعاشا أطيب العيش بدونها » . والغريب بعد هذا أنه لم ينصح بقطعها للناس ، وإنما أخذ يفكر كيف السبيل الى تعكير الصفو وتنغيص العيش على البشلات الوحشية التى تسكن هذه الأمعاء

وجاء بنظرية غريبة أثارت الضحك منـه والسّخرية به ، وأخذت توقعه فى المتاعب من جديد . وكتب اليه بعض الناس يذكّره كأنمـا نسى بأن الفيلة لها أمعاء غليظة هائلة ، وهى مع

(١) نستخدم لفظة اخترع Invent بمعنى خلق شيئاً لم يوجد كاختراع الآلة البخارية وآلة الراديو ونستخدم لفظ اكتشف بمعنى كشف عن شيء كائن ولكنه مجهول كاكتشاف أمريكا واكتشاف مكروب السل (المترجم)

هذا تعيش مائة عام . وكتب آخرون يقولون إن الجنس الانساني من أطول الأجناس أعماراً برغم هذا المُصران . ثم دخل فى حوار واسع بذىء عن الحكمة فى أن سنة النشوء أذنت للحيوانات أن تحتفظ بالمصارين الغليظة ، وبغتةً وقع على دوائه الكبير للتسمم الذاتى : تحدّث بعضهم قال إن فى بلاد البلغار قُرى يعيش أهلها أكثر من مائة عام . ولم يكن متشنيكوف ذهب اليها ورأى هذه الأعمار الطويلة بعينه ، ولكنه برغم ذلك صدّق ما سمع ، وعلم أن هؤلاء المعمّرين يعيشون على اللبن الرائب [1] ، فأسرّ لنفسه : « أى والله ! هذا هو السرّ فى طول هذه الأعمار » ، ولم يلبث أن كلّف بعض الشبان البحّاث فى معمله دراسةَ المكروبة التى تُرَيِّب اللبن ، ولم تلبث هذه المكروبة الشهيرة — البشلة البلغاريّة — أن اتخذت مكانها رفيعاً بين المستحضرات الطبية

وفسّر متشنيكوف عملها فقال : « إن هذه الجرثومة تصنع حامض اللبن الرائب وهى بذلك تطرد البشلات الوحشيّة من الأمعاء » . وبدأ بأن شرب هو نفسه مقادير هائلة من اللبن الرائب ثم عقّب بأكل زريعات من البشلة البلغارية ويظل يأكل منها سنوات . وألّف كتباً كبيرة فى هذه النظرية الجديدة ، وأشادت بهذه المؤلفات صحيفة انجليزية لا يُعرَف الهزل منها فقالت إنها أخطر الكتب الطبية منذ ظهور كتاب « أصول الأجناس » لداروِن . وشاع أكل هذه البشلات السخيفة فى الناس ، وتألفت شركات لصناعتها أثْرَى أصحابُها إثراء كبيراً من بيعها ، وأذن لهم متشنيكوف أن يكتبوا اسمه عليها ولو أن زوجته تؤكد أنه لم يُفِدْ من ذلك قرشا

وعاش عشرين عاماً عيشة صارمة على الأسلوب التى تقضى به هذه النظرية . وجانب الطبّاق ولم يذق كحولاً فى شراب ولم يأذن لنفسه أن تستمتع بشهوةٍ داعرة ، وامتحنه أشهر أطباء العصر وأداموا امتحانه ، وجاءه الخبز فى أكياس معقمّة من الورق حتى لا تَعْلَق به هذه البشلات المعوية التى يتسمم الجسم من فعلها . واختبر دائماً عصارات جسمه وإفرازاته . وشرب فى هذه السنوات الأخيرة جالونات لا عدّ لها من اللبن الرائب وبلع الملايين من البشلات البلغارية النفّاعة . . .

ثم مات فى عامه الواحد والسبعين

(انتهى متشنيكوف) أحمد زكى

(١) منه اللبن الزبادى

خواطر سياسية

بشيرها يوم ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

نزلنا (برتشاخ) فى أوائل أغسطس المنصرم نستجم بعد الاستشفاء فى (بادجاستين) ، وبرتشاخ محلة تمتاز بالهدوء وتوسط الارتفاع عن سطح البحر فلا تكاد تصل إلى خمسمائة متر ، وهى واقعة على بحيرة (فرتر) التى تعد من أجمل البحيرات فى أوربا

وهناك تقوم البواخر والزوارق من بخارية وشراعية مقام الترام والعربة والسيارة من وسائل النقل

ففى أصيل أحد الأيام وبينما نهم لنستقل أحد تلك الزوارق التى تسير (بالبنزين) لمحنا فى الأفق وعلى بعد نحو ميلين أو ثلاثة قوساً يعلو البحيرة ويبدأ من الشاطىء الأيمن ، فصاح ولدى وهو بجانبى : « هذا ماء وكأنه يخرج من مضخة » قلت كلا ، وكيف ذلك وليس فيما نرى مساكن وهذا موضع بحذاء الطريق المعد للسيارات ، ولولا أن القوس لا تظهر معها ألوان لقلنا إنه قوس قزح الذى نسميه فى ريفنا المبارك (قصعة الرخاء) ونعده فألاً حسناً للعام

طلبنا إلى السائق أن يتجه إلى هذا المكان المنبهم علينا وهناك سألناه الايضاح ، قال : إن إلى يميننا بحيرة صغيرة تعلونا بكثير ، ويزداد ماؤها بين وقت وآخر بحيث يخشى طغيانه ، فأقامت له الحكومة محطة كهربائية تنقل منه جانباً فى يوم معين من الأسبوع وقد يتكرر ذلك فى أيام أخرى غير معينة

قلت : ولم تعملون على أن يتخذ فى تصريفه هذا الوضع وفى الامكان صرفه دون أن يرى وعلى وضع مستقيم

قال : « إن أسنانك بحيرتنا تموت من قوة الاندفاع ، حرصاً عليها لجأ المهندسون إلى هذه الطريقة »

قلت : « أهكذا دائماً قوانين الطبيعة لا تتغير ؟ فالغريب من الماء كالغريب من الناس حين ينزل على غير بلاده مغيرا أو محتلا غاصباً يخرب ويدمر ويعصف بالأوضاع كما يعصف بالأرواح ، ولو رد جميع الناس إلى آدم وحواء كما يرد أصل هذه الأنهار والبحيرات إلى المطر ! !

ذكرت على التو بلادى وما عانت منذ أكثر من خمسين عاماً فى نظمها وأوضاعها وأخلاقها وأموالها ، ومضت برغمى فترة طويلة منصرفاً إلى ما اكتنفنى من هم مسخ النزهة وكاد يعى أثر العلاج وأنا مطرق . . مستعبر

قبع جنود الاحتلال فى قصر النيل ووصل أثرهم إلى أقصى الوجه السودانى جنوباً والبحر الأبيض شمالاً . وجلس عميده الأول بقصر الدوبارة ونغص عيشنا فى ريفنا وصعيدنا ، وانساب كالأفعى إلى عقل الطالب بما قدم من كتب ممسوخة وإلى الزارع بامتصاص دمه وإلى الدوائر العليا يخضد من شوكتها ويعلن أوامره فأفسد الأخلاق ، وإلى الجيش فجعله لا يشعر بوجود ولا يتقدم خطوة ولو فى الدراسة النظرية

* * *

ولقد أراد الله أن تصل بنا الباخرة فى العودة إلى الوطن فى السادسة من صباح ٢ سبتمبر ، وما كدنا نفرغ من الاستعداد حتى قاربت الثامنة ، وإذا بأحد الخدم يطرق الباب ، وكم كان سرورى عظيماً حين سلمنى جوازات السفر فأراحنى بذلك من المشهد المؤلم الذى كان على كالضربة الثقيلة ، إذ شاء الاحتلال أن تكون الأمرة فى بوليس الموانئ للانجليز ! فلكم كنت أشعر بالتنغيص المفاجئ فى الذهاب والعودة حين أرى المسيطر الباحث فى جواز مصرى ولمسافر مصرى غير مصرى

فتحت الخادم وتناولت الجوازات مغتبطا ، وطرت مع الفأل فرحاً وقلت فى نفسى سيحقق الله للبلاد بجهودها ما حققت لى المصادفة اليوم

وهكذا يشاء الله أن يمر ١٤ سبتمبر وأنا بعيد عن القاهرة ، كما تمنيت من قديم ، وكما أنالنى الله وقد عودنى جميله

* * *

عدنا إلى الوطن ونزلنا منازلنا والموسم الزراعى فى أحفل مراحله ، إذ تموج الحقول فى جميع أرجاء البلاد بالعديد من أبنائها يجمعون بأيديهم ثروتها ، وإنهم بذلك يتظاهرون للجهاد لا فى سبيل العيش فقط ، ولكن فى سبيل سمعة الوطن فى جانب غنائه ؛ وليس أقوى من مظهرهم حافزاً الهمم بين وهج الشمس وأثر الرطوبة المتخلفة عن الفيضان . فلا يحسون سوءاً من الأولى ولا من الثانية ، لأن وهج الهمة أقوى ، وسورة الجهاد أطغى وأعم

ويتفق أن يحفل الموسم مبكراً فيتفق واليوم المنكود الذى طلعت على رحى الاحتلال شمسه ، وخيمت على عاصمة البلاد سحب الشر فيه مختلطة بغبار الخيل قادمة فى غير حرب ، وشامخة كأنما انتهت من فتح ، وهو الغصب الصارخ يؤيده الغدر الذى لا يعدو خيوط المنكبوت فى قوته ، ثم تدرج عليه سنون فوق الخمسين

انظر واعتبر ! ثم انظر وأمل فى الله الخير ، فان الشعب الذى تعركه المحن وتنفضه الذكريات يكون أقوى الشعوب حينما يستفيد من ماضيه ، وأقدرها على السير ناضجاً بفعل الأيام وهى خير مرب

وإذا كان الزمان استدار فظهرت العزائم متجهة والقوى مترامنة جهاداً فى سبيل العيش ، فما قريب تظهر هذه العزائم فى العمل فى كل ميدان للتخلص مما أصاب البلاد

* * *

وكان أول كتاب للمرحوم مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم فى ١٢ سبتمبر وكان كتاباً له ما بعده . وكان ما تلاه بادرة ظهور القائد الشاب وبادرة الأمل ، وأول العمل المستمر الذى أفنى فيه حياته

ولئن كانت الصحف اليومية وأكثر الهيئات لم تعر هذا اليوم ما يناسبه من عناية ، فقد يكفل الأدب للأمم استخراج العبرة البالغة من المأساة ، والمفخرة الغالية من الحادث الصغير . وقديماً قام الأدب أميناً على تراث الماضى وثأراً للفضل والفضائل . ولقد صدق المرحوم شوقى بك حين رأى كسرى وإيوانه فى سفينة النجوى أبقى على الزمن من الايوان فى فخامته وبنيانه . فكيف به أمام يوم غير من حال أمة ورزأها أكبر الرزء ؟

كنت إلى أمس أقرأ تعليقاً قيما للكاتب الكبير أناطول فرانس على بحث فنى بصدد أحد القصور التاريخية فى فرنسا وهو قصر الوزير (فوكيه) وزير المالية فى عهد لويس الرابع عشر ، فبين عرض لمحنته ثم لمصرعه ذكر تنكر الأيام للوزير وتغير صحبه وخلانه ، وحتى ذلك الجمع الذى لا يحصى ممن له عليهم أيد وآلاء لم يقم بالواجب نحوه ويذكره فى محنته ، ويفصل بين السيئة والحسنة ، ويمنع طغيان الشهوات على قديم مآثره ، إلا لأدباء ، فتسابقوا دفاعاً عنه نظما ونثراً ومن بينهم كورنيل « Corneille » والرئيس هينو « Henault »

وهل أقرب إلى الحق من الأدب ؟ ومن يحمل عبء الأيقاظ للخير غيره ؟ وهل يصرع الظلم سواه ؟

والحق عرض الله ، كل أبية بين النفوس حمى له ووقاء

محمد محمود جلال

حول «نبوة المتنبي»

للأستاذ سعيد الأفغاني

كنت عائداً من جولة في قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر في العـدد (١٦٧) من الرسالة الغراء، التي كتبها رداً على حاشية بحثنا في دين المتنبي المنشور في العددين (١٦١، ١٦٢) من المجلة المذكورة

وكانت قراءتي لرده، بعـد عشرة أيام من صدوره. فاذا تأخرت في التعليق عليه فهذا عذري أبسطه للقراء الكرام؛ وأنا أعوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ومن الجهل بمقدارها والمكابرة في العلم والعصبية للرأي والهوى، فما يزال الناس — ولله الحمد — يقيسون فضـل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله لا بدعواه وتبجحه؛ وقد ولى زمن كان فيه الولوع بالاغراب والاتيان بالجديد — ولو تافهاً — سبيلاً إلى الشهرة وذيوع الصيت، وأقبل زمان فيه للتفكير حرمة وللعقل وزن، وكفى فيه المؤلفون مؤونة الثناء على النفس والتحدث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفردت به من معجزات

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقلّبون ما يطالعون كل مُقلّب؛ يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويفلونه ويتدبرون ما فيه حتى تنكشف لهم منه مواطن الحسن والقبح، ويلمسون فيه آثار العجلة كما يلمسون مواضع التؤدة والروية

وفي هذا ما كاد يصرفني عن الرد، سيراً على قاعدتي في ألا أحفل نقداً ولا رداً الا إذا كان حقاً؛ وسبيلي حينئذ أن آخذ نفسي به وأشكر لصاحبه، وإلا فان الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وخروجي اليوم على قاعدتي إنما كان لمنزلة الكاتب الفاضل لا لما في الرد نفسه. وليس في الأمر كل ما ظنه الأستاذ شاكر: فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك؛ إنما هي حاشية على كلام له المحل الثاني من بحثي، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرض لمؤلف؛ وشتان بين أسطر علقت عرضاً في حاشية وبين كلام مطول أنشيء للنقد خاصة

أنا أدري — والانصاف شريعة — أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير، ففي الكتاب إحسان، وفيه إصابة واجتهاد، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطأها مرة

* * *

وبعد، فاني أشكر الأستاذ على نقله كلامي بحروفه، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا: هل بلغ الأستاذ في الجواب على أسئلتي ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه أم قصر دون هذه الغاية؟ أما أنا فقد عدت إلى كتاب الأستاذ كما طلب إليّ «وأنعمت — ثانية — في تدبر الأسباب الحادية على نفي تنبؤ أبي الطيب فلم أجد فيها مقنعاً» كما لم أعثر في رده الذي تفضل به على شيء من الحجة؛ وإليك البيان:

(١) وهّن الأسـتاذ رواية التنوخي لأنه صاحب الوزير المهلبي، ولأن المهلبي عدو المتنبي، فلا يبعـد أن يكون التنوخي تحامل على أبي الطيب إرضاء للمهلبي[1]. فنحن نسأله: هل يكفي هـذا الاحتمال في تبرير رد رواية التنوخي وهي كما يراها المنصف تحمل في مطاويها دليل الصدق والأمانة في نقل الحديث، لا دليـل الوضع والكذب؟ سأل التنوخي أبا الطيب عن معنى (المتنبي) فأجابه: «إن هذا شيء كان في الحداثة». وظاهر أنه يعني التلقيب لا التنبؤ، فجوابه غير صريح، وهو كما قال الراوي جواب مغالط، وكان في وسع التنوخي أن يحمّل المتنبي — لو أراد وضعاً وتحاملاً — جواباً صريحاً في ادعائه النبوة، ولو استقام هذا الأصل الذي بني عليه الأسـتاذ رواية التنوخي لجاز لكل من أراد نفي خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه. وما أحسب أن خبراً — مهما كان صحيحاً — يستعصي إسقاطه على هذا الأصل!

إنما السبيل أن ينقّب الأسـتاذ عن نص صحيح صريح في تجريح الراوي التنوخي وأنه عهد منـــه وضع الأخبار ودسّ الروايات، أو أن يلجأ إلى حجة — لا إلى احتمال — قوية يرضاها العقل والمنطق السليم

(٢) استهل الأستاذ كتابه بفرض فرضه، وخلاصته أن المتنبي علوي صحيح النسب، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العـلويين زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ. ثم ذهل حضرته عن أن هذا كان منه فرضاً ودعوى فراح يعـده بعد

(١) انظر مقتطف يناير سنة ١٩٣٦ ص ١٣ وأرقام الصفحات التي تأتي في هذا المقال كلها لهذا العدد من المقتطف

صفحات حقيقة واقعة يبنى عليها ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب مستنداً إليها الروايات، ويتهم الراوين. وهو بذلك يخرج على أصول سنها هو لنفسه وأخبر عنها فى رده علينا حين قال :

« ولا بد لمن يريد أن ينقـد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول فى علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضـة . » ونحن ننقل للقارئ أدلة على هـذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ليستبين أن الـكاتب لم يتمكن من ضبط فـكرته فانتشرت عليه وتفرقت . قال فى ص ٤٨ : « بينا لك فيما مر ما بين أبى الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم ... » يقصد بما مر احتماله الذى لخصناه آنفاً . وقال فى ص ٥٢ : « وبنىٰ على مذهبنا فى نسب المتنبى أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية » وقال فى ص ٥٨ : « وكأنى بالمتنبى فى طريقه يظهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوى الأصل شريف النسب محتالاً لذلك بالدهاء . . ! » فأنت ترى أن هـذا النسب العلوى وعداء العلويين كانا فرضا أول الـكتاب ثم صارا حقيقة مقررة فى وسطه

وما ذا فى أن يكون المتنبى علوياً حتى يهتم به العلويون هذا الاهتمام ، وحتى يحتال هو لإذاعته فى القبائل والمـدن بالدهاء والبلاد تمج عجيجاً بالعلويين والأشراف ؟

والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هـذه التى افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التى تحمل أمر تنبئه ويشـغل الأمراء والنـاس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدعى العلوية فقط ، فيقول فى رد رواية اللاذقى ص ٤٨ : « أما اللاذقى فمجهول ولا يتيسر نقد سنده ، ولـكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ومحطاً لـكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله » هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمـة التى أحدثوها فى التاريخ العربى كله أيها الأسـتاذ ؟ ! ولم لا يغتالونه مرة واحدة ويريحون أنفسهم من وضع الأخبار والدس عند الحـكام ؟ إن فى الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سلمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر

وقد رددت أنا قسما كبيراً من رواية اللاذقى هذا ، ولـكن لشىء غير ما ذهب إليه الأسـتاذ الـكريم وسأبينه قريباً . وما أكثر ما يبين الانسان لنفسه الخطة فى البحث ثم « تنتشر عليـه الفكرة » فيبنى على غير أساس . ولست أجد كلاماً فى تصوير عمل الأسـتاذ وأصوله فى بحوثه أصدق من قول الجاحظ فى ابراهيم النظام وهو هذا : « وكان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه لـكان أمره على الخلاص ، ولـكنه يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً[1] »

(٣) يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبهة واحدة بعد أن يقر بأحكامه ، ويقول عنه ص ٤٩ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قبل غرابته عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة . . . الخ » وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنـا . والذى فى كلام أبى على هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسـلام » وجلى أنهم استتابوه من دعوى النبوة فرجع بذلك الى الاسلام . أما الوثيقة فهى ببطلان علويته وبهذا تزول شبهة الأستاذ ، فان من المألوف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنساب ونفيها

(٤) عرض الأسـتاذ لرواية الهاشمى التى فيها : « كان أبو الطيب لما خرج الى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى الى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق » وهـذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين . وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ ص٤٩ إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، وليقول : « إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على بن أبى حامد العـلوية » فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل وبقى المتنبى جعفياً يمنياً . وإذا كان لا بد من إيراد احتمال فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات

(١) الحيوان ج ٢ ص ٨٣

النساخ وإقحامهم . على أن الرواية فى غنى عن هـذا الفرض أيضاً وليس فيها داع الى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليـه وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة

(٥) بقيت رواية الناشئ القائلة : « كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عنى ؛ وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم وهو بعـد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبى » . هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحجة فلنفرضه صحيحاً ولننظر ماذا تحته : إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بعد بالمتنبى ولم يعرف فى الكوفة ، وإذا شئنا الدقة فى التعبير قلنا إنه لم يبلغ أهل الكوفة أمر هذا اللقب ، فيجوز أن يكون لقب به فى الشام ويجوز ألا يكون . وليس فى خبر الناشئ شىء آخر غير هذا . وبيـان ذلك أن أبا الطيب ادعى النبوة للأعراب ثم سجن ثم أطلق وانتهى أمره ونسيه الناس ، ثم حصل فى الكوفة سنة ٣٢٥ وحضر مجلس الناشئ فتى فى الثانية والعشرين ؛ ولما عاد الى الشعر واتصل بالأمراء وبسيف الدولة وناوش النـاس وناوشوه ، وصاول الشعراء وصاولوه ، وتفاقم الشر بينه وبين الناس نبشوا تاريخه — وهو هناك معروف — فأذاعوا منه هذه الزلة التى كانت فى حداثته وتعلقوا بها وسار له فى الناس هذا اللقب : (المتنبى)

***

لهذه الأسـباب — وهى للقارئ معروضة — لم أجد فى كلام الأستاذ شاكر « مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة » وأظن أنى أبنت له — كما أحب هو — وجوه الضعف فى قوله ، وسواء على وعلى الحق : أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا . ولا بد أن يكون القارئ شـعر بحرصى على وزن كلامى حرفاً حرفاً ، وأنى لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه . وقد عجبت كل العجب من الأسـتاذ — وهو الناقد الأصولى الفنان — حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقى ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فان الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثمة حاجة لأدل القراء على سبب إهمالها لأن تهافتها بين . وكثير أن تجرد عليها حملة كالتى نزل بها الأستاذ الميدان فخصص لها صفحتين من كتابه القيم . وهو يعلم — حفظه الله — أن من أدلة الوضع عنـد المحدثين مخالفة الواقع والمعقول كما هو مستوفى يكتب مصطلح الحديث . وأنا أستحيى من شرح هـذا فى مجلة (الرسالة) على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً فى أن يعرفنا أن الخبر ما يحتمل الصدق والـكذب ، وأن وأن ... الخ الخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون . وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتمحيص من دون أن أمن على قرائى . أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ : رواية ، دراية ، أصول نقد .. الخ وكلامى وكلامه أمام القارئ ، وله وحده أن يحـكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء ، وما التهويل بمغن عن أحدنا فتيلا

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التى سوغت له رد الروايات فلم يفعل . أقول لم يفعـل لأن أقواله : « رفضناه وزددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه » ، « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيـل الرواة » ، « أخبار متداولة تهور كثير من الأدباء فى التسليم بصحتها » ، « أما كلمة كافور فمفتعلة » « وأسخف من هـذه الرواية رواية من يروى . . » إن أقواله هذه ولو أتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية والمعنوية . . هى أليق بظاهرة هتافية ينادى فيها بسقوط فلان وفلان منها ببحث علمى العمدة فيه الحجة والبرهان . وأى شىء فى أن ينبز كاتب روايات التاريخ بالبطلان والـكذب ، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان ! !

هذا وقد حمل الأسـتاذ أقوالى ما ليس تحمل : فأنا لم أدع للمعرى تنزهاً عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره » ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة بل هو مما ييسر للمحقق وسائله . كما أنى لم أسـلم بكل الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء ، فقد رددت منها ما وجدت فيه الى الرد سبيلاً ، ونقدت حكماً أدرج فى مصدر من أمهات المصادر وأجلها وهو خزانة الأدب حين وجدت للنقد مجالاً ؛ ولـكل من النقد والرد والتسليم مواطن . وكيف تريدنى أن أقنع قرائى بأمر لم أقتنع به ، والى أشياء أخرى يتحقق من رجع الى مقالى أنى لم أذهب إليها ؟

ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصبية للمتنبى ولـكنه هو هو قدم لنا فى رده دليلاً على عصبيته لرأيه ، وليس لنا فى هذا الأمر يدان . ولما قلت عن كافور : « وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروج الاختلاق » خُيِّل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً

فقال : «إن الأستاذ قد حكم على كافور حكما لم يرد له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق ؟ لقد أتينا نحن (بارك الله) بالروايات وتقضناها بالدليل — ضعيفاً أو قوياً — أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره » اهـ . وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا على النافى — كما لا يخفى على الأستاذ الأصولى — وأن على من يدعى على كافور الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة ، على رغم هذا يحيل الأستاذ على الذهبى الذى وصف دينه وتواضعه فقال : « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقاً » ، و « كان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم فى صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء .. » ويحيله أيضاً على الذهبى وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدبيره وصلاحه . . ويرى الأستاذ معنا أن فقه هذه الروايات — وهو الخبير بالرواية والدراية — يجعل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك ، وإن فى أمور ملكه وبعد غوره ما يشغله عن الاختلاق على شاعر تكفى إشارة منه لتذهب برأسه . إن ما يسبغه المؤرخون على كافور من الصفات يكفى لقول يبعده عن جميع السفاسف جملة واحدة . فى التاريخ بينة وفيه دليل ولكن للعجلة فى الحكم آفات

هذا وفى نفسى مما أورده الأستاذ المحقق شىء ؛ فهل يسمح لى أن أطالبه بالدليل العلمى على قوله الجازم : « أعلم أن أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل (المتنبى) وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء . . . الخ » وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع فى قوله جواباً على سؤالى : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة الخ » فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا الأباطيل ؟ إنى متى أعرفهم يسهل على من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جنى فى سبب تلقيب أبى الطيب بالمتنبى ، فان جنى مفرط فى حبه لصاحبه والدفاع عنه وهو متهم فيه . فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جنى وعلى غير ما حوله ؟ فان تعذر هذا فلا عليه أن يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفكر السليم عليها . ولا بأس أن نقول له وقد قرأنا ختام رده الذى أثنى فيه على نفسه وعلى كتابه بما هو له أهل : أنت كما أثنيت على نفسك ، ولكن إذا كان كتابك قد اتخذه — كما زعمت — بعض الكتاب « مصدراً استنبطوا به أصول النقد » فلسنا بالذين نسمى الطعن المجرد للروايات أصولاً فى النقد ، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث . وهلا إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الكتاب والمجلات التى نشروا بها والمواطن التى قلدوك فيها لنهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به ؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسطراً تذكر عرضاً فى رد فكرة ، تثير مثل هذا الفاضل فيحمل منها هماً يجد وقره وعنته اثنين وأربعين يوماً ثم ينفثه فى رده الذى تكرم به على مثل هذا الشكل

لقد وددت والله لو أن الأستاذ شاكراً نقب عن الحجة وتحرى الحق لأعترف له به وأرجع إلى قوله . وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاص . وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب فى الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً كما لم يغن طنين الأستاذ صروف بالاشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته . والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأستاذ شاكر فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبى الذى قُدِّر بأربعة مجلدات ؛ وأتمنى أن أراه قريباً ، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد لا ألفاظها فقط . وليس يهمهم بعد ذلك أن تكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس ، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأستاذ الأخبار خبراً خبراً ، فيعارض بينها ويقابل ، ويمحصها تمحيصاً يرضيه هو ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه ومراوغةٌ فى الحط منه ؛ فان هذا هو الأشكل بالأستاذ الكريم والأليق بفضله والأولى بسجاياه ، وله — فى الختام — شكرى وخالص تقديرى والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

(دمشق) سعيد الأفغانى

وحى الدم المتحد

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

لم تعد الوحدة العربية خيالاً تغازله الأحلام فى أفق بعيد ، ولا فكرة سطحية تطفو على عقل ضحل كما تطفو الفقاقيع ... وإنما صارت كونا موجوداً وأمراً مجسداً له ذرية وأنسال يتوادون ويتظاهرون فى المأساة وفى فرح الحياة ... وله دماء قرب منها مزيجاً مزجته الأقطار العربية وقدمته لحماية فلسطين من عابدى الذهب ... فللعروبة من ذلك قرة عين لأنها رأت على صفحة الدم المتحد صورة المجد القديم الذى أوشك الزمان أن يستدير بجدته ويقبل بدولته

أجل ! سلوا أشجارا يابسة وجذوعا جافة بشعاب فلسطين وبطون وديانها ، وقد حالت إلى الايراق والحياة : ما الذى نضَّر عودك ورد عهودك وأطال عمودك ؟ وستجيب : إنها الدماء التى لم أُسْقَها من عهد صلاح الدين ... الدماء التى مزجت أمشاجها فكرة إلهية فجعلت فيها إكسير الحياة حتى للاحجار والأشجار والمدر والوبر .. الدماء التى تسيل من الأسود والأبيض والأصفر والأحمر فتجمع خلاصة ما فى الانسانية من إخاء ، وسرما فى المسلمين من توحيد ... الدماء التى تطفىء ما للظالمين من نار ، وتجرف مالهم من آلات الهول والدمار ... الدماء التى تدخرها الحياة ثم تطلقها سيَّالاً طهوراً هدَّاراً رجافاً يغسل الأرض ويحدث الانقلاب وينقل الانسانية إلى الأمام ... الدماء التى تحمل عناصر إخصاب الانسانية بالفكرة الإلهية والحرية والاخاء والمساواة والعدالة والرحمة والسلام والبر والتعاون حتى تلد الأمهات أمثال ابن الخطاب وابن عبد العزيز والرشيد وصلاح الدين ...

***

يا فلسطين يا أرض النبوات ! تلك رسالة جديدة تهبط من شعاب جبالك ومن بين « التين والزيتون » مرة أخرى على قلوب العرب والمسلمين ، وقد كتبت بالدم الممزوج من نفوس تمثل أربعة أقطار من ميراث محمد بن عبد الله ... تحدث أهل الأرض الذين استحالت حياتهم إلى نوع من حياة الأوابد والفواتك لقبح الثقة وسوء الظن ، وشر المعاملة ، أن الاخوة الانسانية لا زال لها تحت جناح تعاليم محمد مكان تأرِزُ إليه وتلوذ به ، وأن الأسرة التى كان يبغيها أبو البشر آدم على وداد وترابط وتضامّ حتى يكون له من ذلك معنى السمو على الأفق الحيوانى ... لا زالت هى الأمة العربية المطبوعة على إجابة الصريخ وتلبية الدعاء ونصرة الضيف واحترام الجامعة ومعنى الدم . . .

***

يا أهل فلسطين ! إنكم عرفتم كيف تموتون عند الاقتضاء ، ولذلك لم تموتوا ! بل ضوعف فيكم سر الحياة لأنكم أمددتموه بالدم وفعال المجد وحسن البلاء . . بل لقد ضوعف بعملكم سر الحياة فى العرب والمسلمين جميعاً ، وصار لهم منكم مثل جديد يضربونه مفتخرين بين يدى هذا الزمان على مسمع الأمم وبصر التاريخ .. وقد غدوتم فى فم الزمان مثلاً شروداً وحديثاً مُرَدَّداً أنسى التاريخ خبر الاسبرطيين وأجناد الرومان والجرمان وغير أولئك من العصبة أولى القوة ! وقد أضفتم إلى مكتبة البطولة كتابا ضافى الصفحات واضح الغرات فرح به عشاق الأبطال وعارفو أقدار الرجال !

ومهما يكن عدد مستشهديكم الذين ساقوا إلى المعالى مهرها من صبيب الدم ومسفوك النجيع . . . ومهما يكن من سطوة القوة ، وعنف الظلم ، ووقاحة الطاغوت . . فان الدرس الذى تلقونه على المتآمرين على كسر شوكتكم وازدرادكم وهضمكم ، درس هائل مزق أعصابهم ، وأطار صوابهم ، ومحا خططهم ، وأفهمهم أنكم أعظم بأساً وأشد مراساً وأطول أنفاساً

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله »

يا صهيونيون ! كذبٌ من الأحلام وخُدعة من الأمانى أن تملكوا أرضاً تنكركم وتلفظكم . لقد سخرتم إلهكم الذهب فى شراء سطوة أمة مخدوعة بكم أو خادعة لكم تتخذون منها آلة تهدم وطناً على أهله لتبنوا لكم على أنقاضه وطناً فى عالم الأحلام ... وستبصرو وتبصرون : أينا المحروب المغلوب . فارتقبوا إنا مرتقبون ، « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم

لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، ففروا من مجزرة أنتم شاؤها وأرانبها . . وكونوا أكيس من أن تبنوا لكم عشاً فى طريق الفيل . . أو تناموا بين فكى الأسد ... !

ثم هبوا أنكم غصبتم فلسطين من العرب ، فما هى ضمانات دوامها لكم وسط هذا البحر العربى الذى يكنفها ويلفها ويقذفها بموجه من الشمال والجنوب والشمال واليمين ؟ هى الحراب الحليفة لا شك . ولكن الحماة مواطنهم فى شمال الأرض ، وهم أمة لامناص من أن يلحقها داء الأمم وتدركها عقابيل الشيخوخة ، وحينذاك أو قبله بكثير يستيقظ الثأر الراقد ، وينهض الوتر الرابض ، ويتنادى أبناء الشرق عليكم ، فلو نفخوكم لأطاروكم ... فأيما أمان وقرار وقيمة لبلد فقد أهم عناصر الاستيطان وهو الدوام ؟ !

ألا إنها خدعة عبقرية ، أو قل هى عصا القدر تسوقهم إلى شبكة محبوكة فاغرة لتصديق نبوءة النبى العربى الكريم(١) . « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

أيها المؤتمرون بتراث العروبة ! كلمة من شباب العرب والاسلام : إننا اعتزمنا أن نحيا أعز حياة وأمجدها ، مدفوعين إلى ذلك بوحى أرضنا أرض التاريخ والرسالات ، والميراث الروحى ، وبهتاف أبطالنا وأعلام تاريخنا ، يحيط بنا أفواج مجندة من أرواح الشرق التى نعيش معها ونلقن عنها ؛ ولن يعوق اندفاعنا عائق ، لأن عجلة الفلك تدفعها يد القدر ، وهى التى تدفعنا لنأخذ دورنا الثانى فى تنمية الميراث الانسانى وغسل الأرض . . .

ألا فافسحوا الطريق ولكم حسنة ، قبل أن تفسحوه وعليكم كلمة السوء ! فأننا عما قليل سيل يتحدر من صبب ، ونار تشتعل فى حطب ! « ومنذا يرد على الله القدر » !

عبد المنعم محمد خلاف

(١) ورد فى صحيح البخارى ما معناه : « تقاتلكم يهود فتقاتلونهم حتى يقول الحجر : يا مسلم ! ورائى يهودى فاقتله »

جولة ريفية

صحبة النهر المقدس

فى الطريق الريفى الملون بالأضواء والظلال لا تجد أجمل من رؤية النهر المقدس ، يشق الوادى الجميل ، فيُنضر بالخضرة طلعته ، ويزين بالعشب والشجر حافته ، وينفث من روحه فى الطير الحياة ، ويطيف من حوله أرواحاً تغنى بجماله وتبتسم فى عذوبته !

ولقد مرّت قرون وقرون ، ومياه النهر تغنى للوجود أغنية الخلود ، وتفنى المخلوقات فى كر السنين ، ويبقى وجه الماء العذب الطهور تصافحه أضواءُ الشمس الذهبية ، وتباركه أنفاس الهواء ، فيملأ هذا الثالوث الطبيعى القلوب والعقول بشراً وصفاء وذكاء وحياة !

ويالها من قوى سحرية ، تُقوى الايمان بالخلود ، وتزيد الحب للوجود ، وتبعث الزهد فى الحياة ، وتمان فى الدنيا مجد الله !

ومن ذا الذى يمكنه أن يصف سحر النهر ؟ وكيف لأديب أو مفتنّ أن يصور روحاً من الأرواح عاشت من جودها الحقول ، وطفرت فى براءتها الطيور ، ورقصت فى دلالها الهوام رقصات الجنون !

ومن الغريب أن آلاف الأناسىّ تسير إلى جوار هذا الروح الهائل ، كظل من الظلال العابرة ، لا تهتز لجوده ، ولا تنحنى لبره ، ولا تهتف بجماله ، كأنما نضبت فيهم عاطفة الاعتراف بالجميل ، على حين كان الآباء الأولون يقدرون للنهر أياديه ، فيقدمون له الهدايا ، ويحملون لصدره أعز الأرواح !

فلماذا لا تُزجى لهذا الماء الغنى هدايا الفن الحديث ، وقرابين القلب العارف النبيل ؟ وها هى ذى روح النهر تشدو بأنفاس الحنان ، وهاهى ذى أمواجه تتنفس البهجة والفرحة فى الحياة !

(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السحرتى
المحامى

مشرقيات

فى الأدب العربى الحديث

للأستاذ أغناطيوس كراتشقوفسكى

الأستاذ بجامعة لينتجراد

تمهيد : امتاز الأستاذ أغناطيوس كراتشقوفسكى صاحب هذا البحث بدقته وسعة مداركه ، وتساميه عن المواضيع المطروقة ؛ وهو لا يفرق مطلقاً بين الآداب العربية وبين الأمة التى أنتجت هذه الآداب

وقد لا أعرف بين علماء المشرقيات فى أوربا من توفر على دراسة الأدب العربى الحديث غيره وغير البروفسور جب صاحب الدراسات الوافية فى القصة المصرية والأدباء المعاصرين ، والأستاذ كامفماير الألمانى مؤلف كتاب «قادة الأدب العربى الحديث» ، والمستشرق السويسرى الدكتور ويدمار الذى يذيع دراسات مستقلة عن الأدباء والشعراء المعاصرين ، كمحمود تيمور والزهاوى ، والمستشرق نيفل باربور الذى كتب دراسة وافية عن المنفلوطى وعن تاريخ المسرح المصرى ، وكذلك المرحوم مارتين هارتمان المتوفى لأعوام قلائل ، فاليه يعود الفضل فى تنبيه علماء أوربا إلى الأدب العربى الحديث

وقد زار العلامة كراتشقوفسكى مصر وسوريا وفلسطين عام ١٩٠٨ ، وانكب فى خلال اقامته بهذه الأقطار على دراسة آدابها الحديثة ، ومكث بها فترة طويلة بمدرسة اليسوعيين فى بيروت . وظهرت نتيجة زيارته ودراسته فى بحث ممتع قرأته له منذ أعوام ناشد فيه الأدباء المعاصرين أن يدونوا تراجمهم ويدرسوا آثارهم

وللأستاذ أيضاً يعود الفضل فى تعريفنا بالعالم المصرى المرحوم الشيخ محمد عياد الطنطاوى المدفون فى مدينة بطرسبرج (لينتجراد) ، فقد نزح هذا العالم الأزهرى منذ نحو قرن تقريباً إلى روسيا ليدرس الأدب العربى فى جامعاتها ، ووافاه الأجل وهو هناك فدفن فى الأراضى الروسية ، ويوجد رسم فوتوغرافى لقبره فى الخزانة التيمورية ، وقد نقشت بعض عبارات بالعربية على شاهد القبر تفيد هذا المعنى

وقد ظهر أول بحث علمى للأستاذ كراتشقوفسكى عن « شاعرية أبى العتاهية » وضعه عام ١٩٠٦ ، فرسالة « خلافة المهتدى » التى تقدم بها إلى الجامعة للحصول على درجة علمية ، فكتاب « المتنبى وأبو العلاء المعرى » وهو بحث ممتع دقيق فيما كان للمتنبى من التأثير فى فلسفة أبى العلاء وشعره وبالأخص فلسفة التشاؤم الغالبة فى شعر فيلسوف المعرة وفى آرائه الدينية ، ودراسة عن شعر الشاعر الدمشقى « أبى الفرج الوأواء » ، وترجمة ديوانه ، وكتاب « البديع لابن المعتز » ، ودراسة عن « الرواية التاريخية فى الآداب العربية المصرية » ، ثم هذا البحث الممتع الذى نشره فى الملحق الأول من دائرة المعارف الاسلامية

ومما يجدر بنا ذكره أن العلامة كراتشقوفسكى أشرف على ترجمة كتاب « الأيام » لطه حسين ، و « عودة الروح » لتوفيق الحكيم إلى الروسية ، وهو يشغل الآن كرسى أستاذ الأدب العربى بجامعة لينتجراد ، تعاونه فى مهمته سيدة فلسطينية هى كلثوم فاسيلفا التى وقفت جهودها على نقل الآثار النفيسة فى الأدب العربى إلى الروسية (المترجم)

***

١ — لمحة عامة — عوامل التقدم — العصور

ليس من اليسير على الباحث المحقق أن يعثر على بعض آثار النهضة الأدبية فى العصور السابقة للقرن التاسع عشر . فانها كانت مجرد مظاهر فردية الغرض منها إحياء الفنون اللغوية القديمة ، دون محاولة التجديد فى الأدب ؛ وكان من جراء الروابط المتينة التى نشأت بين الأقليات المسيحية فى سوريا ودوائر روما واستامبول أن بزغت مدرسة أدبية خاصة ، يتصدرها مطران حلب المارونى السيد جرمانوس فرحات (١٦٧٠ — ١٧٣٢) ؛ إلا أن العرب لم يتأثروا بالتيارات الفكرية فى أوربا إلا بعد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) . فاذا أردنا أن نبين مظاهر الثقافة الأوربية التى تركت أثراً أعمق من غيرها فى التفكير العربى ، ألفيناها فى الوصف الذى أورده الجبرتى لأول مطبعة حروف ، ورأيناه فى أول مكتبة نظمت على النمط الأوربى فى دار الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ — ١٨٣٤) الذى أصبح فيما بعد شيخ الجامع الأزهر . وإن فى هذين المثلين فكرة عن بعض العوامل

التى قامت بدور هام فى تكوين الأدب العربى الحديث ، وقد أنشئت فى ذلك الحين دور جديدة للعلم على الطراز الأوربى ، فأنشأ محمد على الكبير مدارس لتعليم الطب والعلوم الفنية بنوع خاص ، لكنها خصصت أيضاً لتدريس فن الترجمة . أما فى سوريا فقد عملت الرسالات الأوربية والأمريكية المديدة عملاً مجدياً فى هذا السبيل ، فأسست مدارس منوعة ، وراح الأهلون ينسجون على منوالها فى إنشاء دور العلم . فكانت مدرسة بطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣) أولى المدارس الوطنية . وفى خلال القرن التاسع عشر أدخلت على تلك المدارس تعديلات عدة ، فأصبح للبلاد العربية الآن مجموعة رائعة من المعاهد العلمية الكبرى التى أحدثت أثراً مباشراً أو غير مباشر فى تقدم الأدب الحديث . وإنا نذكر منها الجامعة الأمريكية ، وجامعة القديس يوسف ببيروت ، والجامعة المصرية بالقاهرة . ثم انتعشت حركة البعثات العلمية فأكملت ما قامت به المدارس من الخدمات . وهناك وصف طريف لأولى البعثات التى أرسلها محمد على الكبير ، وهذا الوصف الشائق بقلم أحد المبعوثين ، رفاعة بك الطهطاوى (١٨٠٠ — ١٨٧٣) الذى أصبح فيما بعد مترجماً مجتهداً ، واحتل مكانته الأدبية كزعيم من زعماء الاتجاه الجديد . وقد اتخذت تلك البعثات صبغة منظمة ابتداء من مستهل القرن العشرين . ومن السهل استجلاء أهميتها فى تكوين الثقافة العربية إذا اطلعنا على الرسائل التى قدمها شباب العلماء العرب فى جل السنوات (خصوصاً إلى الجامعات الفرنسية) . وفيما عدا الطباعة التى كانت معروفة فى سوريا منذ فجر القرن الثامن عشر ، دون أن يكون لها أثر كبير ، فقد أدخلت الحملة الفرنسية إلى مصر عنصرا جديداً وهو الصحافة الدورية . لكن أثرها ظل فى حيز ضيق إلى أن كانت سنة ١٨٢٨ حين أعاد تنظيمها محمد على الكبير . وكان لها الفضل العميم فى تقدم الأدب الحديث ، إذ وجهت بعض الأنواع الأدبية وجهات جديدة كما ساعدت على ظهور أنواع أخرى . وكان الاقبال المتواصل على الترجمة مرتبطا تمام الارتباط بالطباعة . واستهلت الحركة بترجمة الكتب العلمية ثم شرع فى نقل الكتب الأدبية البحتة . وكما أن بعض الكتب القديمة كمؤلفات ابن المقفع والجاحظ كان من الصعب نقلها إلى اللغات الأخرى لولا مترجمو العصر العباسى ، فان الأدب العربى الحديث كان مستحيل النشوء لولا مترجمو القرن التاسع عشر . وللمرة الأولى فى التاريخ أصبح الأدب القديم فى متناول القراء بفضل الطباعة . وقد شرع فى خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة فى دراسة هذا الأدب دراسة صحيحة مؤسسة على القواعد الحديثة . وقد قامت هذه الحركة على أساس أنه لا يجوز نبذ الأدب القديم كله لتشييد أدب عربى حديث ، بل يتعين الاحتفاظ بجزء كبير من الأدب القديم واعادة تنظيمه . وقد تأسست دور كتب على النمط الأوربى فسهلت تلك الدراسات المنظمة وساعدت على نشر الكتب القديمة . وإلى جانب الصحافة الدورية ، قامت المنتديات والجماعات العلمية والسياسية والأدبية تدريجياً منذ منتصف القرن الماضى فأحدثت أثراً عميقاً فى الجو الأدبى . بل إن النثر الخطابى نشأ وتدرج فى تلك المنتديات . أما المسرح فلم يكن له حظ يذكر ، فقد ظهرت بواكيره فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفضل جهود بعض الهواة ، لكنه لم يعتبر مظهراً جدياً من مظاهر الفن إلا فى القرن العشرين إذ برزت طائفة من الممثلين الأكفاء يرشدهم فريق من النقدة المسرحيين

وللهجرة أهمية خاصة ترجع إلى تقلبات مصير العرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وذلك لاعتبارات متنوعة من سياسية واقتصادية . ولقد سارت الهجرة جنباً لجنب مع الأدب العربى الحديث منذ فجره حتى اليوم ، سارت منذ غداة الحملة الفرنسية إذ نزحت بعض الأسر عن مصر وأقامت فى فرنسا ، كميخائيل صباغ (١٧٨٤ — ١٨١٦) والياس بقطر (١٧٨٤ — ١٨٢١) . وكثير من أولئك المهاجرين كانوا أساتذة الآداب العربية فى جامعات أوربا كالشيخ الطنطاوى المدفون ببطرسبرج (١٨١٠ — ١٨٦١) وكان جل اهتمامهم موجهاً إلى إحياء الأدب القديم ، إذ أن الأدب العربى الحديث كان فى مستهل نهضته فلم يثر اهتمام المستعربين وعلماء المشرقيات . لكن الحالة تطورت بعد سنة ١٨٧٠ إذ تدفق سيل المهاجرين تدفقاً كبيراً (خصوصاً النازحين من سوريا) لا إلى أوربا فحسب ، بل إلى أمريكا الشمالية والجنوبية . وكان لهجرة هذه العناصر أهمية عظمى فى تكوين الأدب العربى الحديث ، إذ ظهر جيل من الكتاب بدأوا دورهم على مسرح الأدب وإن لم يتموه إلى الآن

استناداً إلى هذه العوامل يمكن القول بأن تاريخ الأدب

العربي الحديث ليس إلا تاريخ النفوذ الأوربي ، فقد اتجه هذا الأدب اتجاهين رئيسيين : النضال بين الأفكار القديمة وبين الأفكار الحديثة ، والمشكلات التي نشأت من طابع الفن الأدبي الحديث . وقد اتخذ هذا النضال أشكالاً متباينة في المضمار الأدبي ، فشوهدت في كل مرحلة تقلبات تختلف عن الأخرى . وأهم الميول التي ظهرت بجلاء هي أولاً : الاحتجاج على كل جديد ومحاولة البقاء في دائرة القديم ، وإحياء الأساليب القديمة . ثانياً : السير سيراً سطحياً على منوال الأوربيين وتقليد أفكارهم ، واحتقار الماضي العربي بأسره . ثالثاً : محاولة صبغ الأصول الصحيحة للأدب العربي بأشكال جديدة مبتكرة من أساسها ، مع اتخاذ الطرق الأوربية والثقافة الغربية وسيلة للوصول إلى هذا الغرض . ولا تزال هذه الميول قائمة حتى الآن جنباً لجنب

ويلاحظ أن الفريق الأخير هو الذي فاز بأوفى عدد من الأنصار . وبديهي أن مصير العرب السياسي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أثر تأثيراً كبيراً في التيار الأدبي . فتاريخ هذا العصر هو تاريخ الانفصال تدريجياً عن تركيا (سواء من الوجهة السياسية أو الأدبية) ونشأة الروح القومية العربية التي اجتازت مراحل نموها بخطوات تختلف سرعتها باختلاف البلاد . وقد شاهدنا في الأيام الأخيرة أن تقدم الروح القومية أدى إلى نزعة فردية عند بعض الأمم العربية . أما في ميدان الأدب فان تلك النزعة تنمو وتقوى في مصر حيث يدعو بعض المفكرين إلى تمصير اللغة وإحياء الأدب القومي

***

إن من الصعب تقسيم الأدب العربي في القرن التاسع عشر إلى عصور تميزه تميزاً واضحاً ، فقد كان الانتاج الأدبي في حد ذاته إلى عام ١٨٨٠ تافهاً نوعاً ، بل إن العرب أنفسهم كانوا لا يذكرون أسماء كتابهم ، ذلك لأن مؤلفات هؤلاء الكتاب لا قيمة لها إلا في نظر معاصريهم ، فهي مرآة لأفكار عصرهم ومشكلاته ، وأهميتها اليوم لا تعدو أن تكون تاريخية بحتة . بل هو عصر بحث واستطلاع أكثر منه عصر إنشاء أدبي

ويمكن تحديد هذا العصر بخمس قرن ، أي من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٩٠ ، ثم من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٠ ، وهي الفترة التي اختفى فيها من المضمار الجيل الأول لناشري النفوذ الجديد ودعاة الأدب الغربي ، وكانت كل من سورية ومصر تعملان وقتئذ مستقلتين ، فالتفتت مصر إلى المضمار العلمي بنوع خاص ، أما سوريا فوجهت اهتمامها إلى ميدان اللغة والأدب ، وبرز في كل من البلدين رجال عظماء كبطرس البستاني في سوريا ، ورفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك (١٨٢٤ — ١٨٦٣) ، وعبد الله فكري (١٨٣٤ — ١٨٩٠) بمصر ، وفي البلاد غير العربية امتاز العصر بظهور بعض الكتاب النوابغ كأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧)

في هذه الفترة أنشئت الصحافة الدورية وتكون الأسلوب الصحفي ، وشهدت السنوات العشر المتخللة بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٧٠ تغيرات خطيرة في مركز الأدب العربي الحديث ، فحوادث دمشق في سنة ١٨٦٠ ، واستقلال لبنان استقلالاً داخلياً من جهة ، وافتتاح قنال السويس (١٨٦٩) ، ثم نشوب الثورة العرابية (١٨٨٢) أدت إلى احتلال القطر المصري من جهة أخرى ؛ كل هذه العوامل ساهمت في تعديل الطرق التي سار عليها الأدب . ولقد اتسع نطاق الهجرة السورية إلى مصر اتساعاً كبيراً في الفترة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٠ ، فانتقلت إلى أيدي السوريين جميع الصحف الاصلاحية القوية النفوذ

(يتبع) ترجمة محمد أمين حسونة

الطيف ...

للأستاذ فليكس فارس

يا جيرةَ الحيّ هل في الحيّ من آسِ … يردُّ ذكرى وآلامي ووسواسي؟
سلختُها عن شغافِ القلب فاقتلعتْ
جُذورُها من صميمِ القلبِ إحساسي

***

أعلو المنابرَ طلّاباً بنشوتها … بعثَ القديم بأفكاري وأنفاسي
فتنجلي بيَ نفسي وهيَ خافيةٌ … عني لتبدو لمَنْ حولي من الناسِ
أُنيرُ نبراسَ شعري أستبيحُ به … ما يهتكُ السترَ للمُستذكرِ الناسي
فيجتلي شاهدي روحي بروعتها … ويحجبُ الشعرُ عني نورَ نبراسي

***

نشدتُ نفسيَ في الإعصار أقحمها … نشدتُها في ظلالِ الوردِ والآسِ
نشدتُها في عيونِ الغيدِ طامعةً … مني بإحياءِ تدليهي وإيناسي
فروّعتني شَرارات الحياة بها … وراعها في عيوني أربدُ اليأسِ
يخالنيَ الناسُ أمشي في ربوعهم … ولم أكن غيرَ طيفٍ بين أرماسِ
فإنْ جلستُ إلى الإخوانِ مؤتنساً … لمحتُ ذاتيَ وهماً بين جُلّاسي
أراودُ الكأسَ عن سكرٍ تجودُ به … فلا أرى غيرَ وهمِ السكرِ في الكاسِ

***

يا جيرةَ الحيّ هل في الحيّ من آس … يردُّ ذكرى وآلامي ووسواسي؟
سلختُها عن شُغافِ القلبِ فاقتلعت
جذورُها من صميمِ القلبِ إحساسي

(اسكندرية) فليكس فارس

الشاعر وسريره (1)

للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير

— ٢ —

في غرفةٍ واجمةٍ قفرةٍ … ليست بها بارقة للمُنى
هادئة لا عن طمأنينة … ساكنة مثل سكون الفنا؟
النور في أرجائها حائر … يصيح من يأس: أقبري هنا؟!
ولا جواب غير همسٍ بها: … ويبكَ يا ابن الشمس أين السنا؟
لا ذنب للنورَ ولا غيره … في غرفة خالية مِن «أنا»!

***

ثاقبة السمع، تكاد الرؤى … تُسمَعُ فيها وخُطا الأزمنه!
كأنما كل جدار بها … أبدل آذاناً عن الألسنه
ضلّت بها الأشياء ناموسها … فما لها من صِفَةٍ أو زِنه!
يمتدّ فيها الزمن المنقضى … حتى كأن اليوم فيها سَنه
كأنما الدهر بها مُتعب … أوغل في غيبوبة من سِنه!

***

ثَمَّ «سرير» مُفرد، لاغِب … ممتقع الوجه، كليم الفؤاد
ينتحل البشر إذا جئته … وهمّه ما بين خافٍ وباد
يرثى لقلبٍ في ضجيج الدُّنى … يشكو من الوحشة والانفراد
واضيعةَ الجمر بلا مُصطلٍ! … وليس بعد الجمر إلا الرماد!!
ينشد قلباً واحداً عاطفاً … من ضعضعت شكواه هذا الجماد!

***

رَق لحالي، وهو أحرى بأن … يبكيني العطف على حاله!
كأنه في شبه راهب … لا تخطر الدنيا على باله
يحمل مني جسداً مائراً … طول الدُّجى يمطَى (1) بسرباله
يقوم عنه وهو مستنفدٌ … قواه، ملغوبٌ بأوصاله
يلفيه بؤساً صاحبٌ فوقه … يطرقه الليل بأهواله

***

من لسريري بيدٍ عَذبةٍ … تنفخ فيه الرَّوح والعافيه؟
يجولُ فيه فإذا جهمُه … أريكة منضودة زاهيه!
ينتشر الريحان في جوها … وتنتشي في ظلها الفاغيه!
آوي بها من غرفتي جنةً … يمر فيها الدهر كالثانيه!
رُبَّ سرير حسُنت حاله … يعود بالحسنى على حاليه!!

علي أحمد باكثير

(1) تابع لما نشر في العدد ١٦٧

(1) يمطى: يتمطى

وداع صديقين*

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عِندى التهانى عذبة لكما … فرحى ، فمالى اليومَ عندكما ؟
ومع التهانى الطيباتِ أسىً … وارٍ يجوبُ الصدْر مُضطرما
إمّا انتشى قلبى لمجدكما … ذكر النوى فهفا لبُعدكما
فرح وتحنان ، فأيُّهما … أحْلى له الخفّاق ، أيهما ؟
قد حارَ قلبى قبلَ بينكما … ما يفعل المسكين بعدكما !

***

أخوىّ سيرا واتركا كبدى … تلهو بها الأشواقُ إثركما
تبًّا لها مكلومة أبداً … ما إن تُسيغ الأعذب الشما
أو تُنكران أساى فى عُرسٍ … رن السرور بساحِهِ نغما
إن الوفاء يهزُّ بى شجناً … جمّ اللهيب ويَنظم الكلما
ويهيجنى قسراً فمعذرةً … تَسَع الوفاء البرَّ ، أو كرما

***

أخوىّ سيرا للفخار معاً … إن القلوبَ تحوط ركبَكما
لا تأسيا لملاعبٍ كرُمت … نبت الصِّبا فى قدسها ونما
أو ترْهبا الصحراء قاحلة … لجُّ الرِّمال طغى بها وطما
فالمجد والذكْرُ الجميل لمن … يجرى على الأرماح مبتسما
كم أطلعت صحراؤنا قمراً … حول النبى ، وعلمتَ أمما

***

وعلامَ ظعنكما يُروّعنى … ومرابضُ الأحرار قصدكما !
إن العراق على الجِوارِ أخٌ … برٌّ كريم يكلأُ الرَّحما
فى رأسه من هاشمٍ أسدٌ … يرعى العرينَ ويحرس الأجما
غازى بن فيصل جلَّ محتدُه … شرفاً ، وطابَ أبوّةً وحمى
ملكٌ به تزْهو العروش ، جرى … نحو العلاء بِشعبه وسما

***

فخر الشباب ، وحسن طلْعته … وضياءه إذ يكشفُ الظُّلما

لِلّهِ همُّكما ، ودركما … من كوكبين توهّجا هِمما
قلبا كما قد أُترِعا أملاً … وعزائماً ، وتوقّداً شمما
أصبحتُما مثلاً فمثلكما … من سارَ فى طلبِ العُلى قدُما
نضْوانِ ، والقلبُ الكبير لظىً … تضوى به الأجسام ما اضطرما
خاضاً عُباب المجد مُضطرباً … صخباً : ودرب المجد مزدحما
ملآ الصحائفُ كلَّ مفخرةٍ … وتشاطرا الأمجاد واقتسما
فاذا سألت المجدَ ، أى فتى … نزهو به فى الشام ؟ قال : هما !

***

ثملان بالعزِّ التليد فكم … بعثا محاسنه ، وما كرُما
طَربان لم ذا مجداً ظفراً … أو ردّدا نغما ، وما سئما
أوَ يسأمانِ ، ومجدُنا زهرٌ … فى مَفرِق التاريخ قد نظما
مجد العروبةِ ساطعٌ أبداً … لا يرْهبُ الأحقابَ والقدما
تعنو له الأجيالُ خاشعةً … وتخُصُّه التبجيلَ والعِظما

***

يا مجْدَنا الماضى تحيّتنا … اليومَ ثُرْنا نبعثُ الرِّمَما
سنُعيد صوتك داوياً غرِداً … فى الخافقَيْن وننشر العلما
نحنُ الشِّبالُ فداءُ رايتنا … سنُحطِّمُ الأصفادَ واللُّجما
آمالُنا وخيالُنا وطنٌ … سُقيت دُموعاً أرضُه ودما
جُبلت من الشُّهداء طينَتُه … فغدا لقُدْس تُرابه حرما
وطنى تخذْتُكَ فى الصبا أملاً … حُلْواً يرفُّ ، وفى الكرى حلُما
وطنى عبدْتُ ثراكَ مِن وَلَهى … لو كنت مِمّن يعبدُ الصنما

***

يا صاحبىَّ ستنزلانِ حِمًى … شَبَّ الفخارُ لديهِ واحتلما
بغدادَ أم المجدِ من ولدتْ … للمجد مأموناً ومُعتصما
إن تأتياها ، فاذكرا زمناً … كلُّ العصور غَدت له خدَما
ثم اسقيَا العبراتِ تُربتها … قد جلَّ دمعٌ للوفاء همى
البصرتانِ هناك كم ولدا … حبْراً وكم ذا أطلعا علما
والرّافدان هُناكَ كم حملا … عرشا ، أظلَّ العُرْب والعجما
أىُّ العروشِ يظلُّ منبسطاً … أى الجديد من البِلى سلما ؟
هذى دمشقُ ، فكم بها أثر … من عبدِ شمسٍ شارف العدما
كم جرَّ ذيلاً فى حدائقِها … مروانُ أو كم نقّل القدما

(*) ألقيت فى الحفلة التكريمية الكبرى التى أقامتها جمعية التمدن الاسلامى بدمشق للأستاذين على الطنطاوى وأحمد مظهر العظمة بمناسبة سفرهما إلى العراق للتدريس فى مدارسه

من وراء القرون

هــذه الأحداث تتوالى ، والمصائب تتعاقب ، والأمم الاسلامية تخوض كل يوم بحراً من اللهيب ، فأين الأدب الذى يصف الأحداث ، ويصور آثارها ؟ وأين الشعر الذى يشحذ الهمم ، ويستثير العزائم ؟ وأين الأدباء والشعراء الذين يشعرون بشعور الأمة ويألمون لآلامها . ويشاركون فى بناء مستقبلها ؟ . . .

أما حركتكم أيها الشعراء نكبة فلسطين ؟ أما هزت قرائحكم ؟ أما هاجت عواطفكم ؟ اقرأوا الآن هذه الأبيات من قصيدة الأبيوردى فى استيلاء الفرنج على بيت المقدس فى سنة اثنين وتسعين وأربعمائة . ثم افتتحوا (ديوان فلسطين) الذى ستؤلفونه من قصائدكم فى فلسطين بمعارضة هــذه القصيدة ، عل قصائدكم تهز الأمة الغافلة فيخرج منهــا صلاح الدين جديد

«ع»

قال الأبيوردى المتوفى سنة . . .

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منها عرضــة للمزاحم
وشرّ سلاح المرء دمع يفيضه   إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيها بنى الاسلام ! إن وراءكم   وقائع يلحقن الذُّرى بالمناسم
أتهويمة فى ظلّ أمن وغبطة   وعيش كنوّار الخميـلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها   على هبوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام[1] يضحى مقيلهم   ظهورَ المذاكى أو بطونَ القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمًى   توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السـيوف البيض محمرة الظبى   وسـمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة   تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها   ليسلم يقرع بعـدها سن نادم
سلَلن بأيدى المسلمين قواضباً   ستغمد منهم فى الطُّلى والجماجم
يكاد بهنّ المستجنّ بطيبــةٍ   ينادى بأعلى الصوت : يا آل هاشم !
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا   رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من العدا   ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى   وتغضى على ذلّ كماة الأعاجم
فليتهم إذ لم يذودوا حميّة   عن الدين ضنّوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا فى الأجر إذ حمّش الوغى   فهلاّ أتوه رغبـــة فى المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى   فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعونا كم والحرب ترنو ملحّة   إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارةً عربيّــة   تطيل عليها الروم عضّ الأباهم

* * *

فان أنتم لم تغضبوا عند « هذه ... »   رمتنا إلى أعــدائنا بالجرائم

(١) الشام أو سورية ما بين جبال طوروس ، وبادية العرب « خلقها الله وحدة » ، فلا يستطيع بشر أن يجزئها !

جبّارة فى الخطبِ باسمة   لا تشتكى لجِراحها ألما
سخِرت من الطُّغيانِ فاغرةً   قبراً لـكلّ مدجّج ظلما
دامٍ حشاها ، وهى عابثة   كالغيدِ ، تضحكُ مُقلةً وفما
لا تنسياها صاحبيّ غداً   أو تنسيا شملاً بها التأما
أو تنسيا بردَى وواديَهُ   والغُوطةَ الغنّاء والنَّسما

* * *

مالى أذكرُ ! أين مثلكما   من يحفظ التذكار والذمما ؟

أمجد الطرابلسى

(دمشق)

القصص

ليلة... من عمر فتاة!

للأستاذ محمد شوكت التونى

منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وأمينة فى عراك بينها وبين نفسها. فمرة تقوم لترتدى ثيابها وتعد نفسها لملاقاة «صادق». ولكنها لا تلبث حتى تلقى الملابس وترمى أدوات الزينة مهتاجة الأعصاب ثائرة النفس. فانها لا تريد لقاءه ولا تبغى أن تشاهد وجهه ولا أن تستمع إلى حديثه، ولا أن تبادله ذياك الحديث. فقد أصبح بغيضاً لديها، كريهاً فى عينها، منبوذاً من كل عواطفها إلا عاطفة الحقد. لقد عرفته أول ما عرفته شاباً وادعاً رقيقاً ملأ أذنيها بأحاديث الهوى، وصور لها دنياها زهوراً ورياحين، وأضاء فى قلبها نور الأمل، وأشعل فى نفسها جمرة الحياة الحلوة الهنيئة، وحسبته صادقاً فى قوله مخلصاً فى حبه، وفياً بعواطفه، يريدها شريكة له تقاسمه نعماء الحياة وبأساءها، يبنيان معاً كالعصفورين عشاً يتذوقان فيه جمال الدنيا وينعمان فيه بسقسقة صغارهما زينة الحياة وذخر الباقية

وكانت قد اطمأنت إليه وأنست لحبه، وبادلته النجوى كما بادلته رسائل تفيض سطورها بأشد العواطف، وتسجل فى كلماتها خفقات قلبها

وكان لقاؤهما أول العهد نادراً لا يستطيعانه، فكانت الرسائل عزاءها وسلوتهما، ورسول قلبيهما؛ وكان والدها رجلاً شهماً قوى الشكيمة، يحيط منزله بعنايته ويتعهده برعايته، فكان الافلات من حضانته عسيراً: ولكن الشباب لا يُغلب والعاطفة فى زمنه لا تقهر، تستطيع أن تنفذ ولو فى الصخر الصلد. وعلى ذلك فقد تقابل العاشقان بعد طول البعد، وبعد أن ربط بين قلبيهما مجرد النظر والميل الغريزى والخيال البارع، ووثقت الروابط والعلاقات الرسائل التى كانا يتبادلانها، والتى كانت ألفاظها تحمل من المعانى ما هو أبعد ما يكون عن الحقيقة لأنه نضح الخيال وثمرة الأمل الواسع والرجاء الفسيح

ولكن المقابلة وتكرارها مرة أخرى باعدت بين العاشقين، فقد عرفت من أمره ما غاب عنها بين سطور الرسائل، فهو يريدها كما يريد الرجل المرأة، تدفعه شهوة الشباب الغلابة التى تتشكل فى صورة العاطفة وقد تسمو وترق، وتأخذ هيكل المثل الأعلى ولكنها لا تلبث عند اللقاء واللمس وتذوق القبلة والعناق أن تنكشف وتتساقط جافة صفراء من فوقها ومن حولها الأوراق التى كانت تسترها مخضرة منداة، عليها ظلاوة الغضارة ورونق النضارة. ويصفق فى ذلك الكيان البشرى كفّا الرغبة فيزلزل الجسم ويخون اللسان صاحبه، وتكشف النظرات خديعة الخيال

أدركت «أمينة» كل هذا، وكشفت من أمر صاحبها ما رابها أول الأمر، فتعللت بالآمال واستنجدت بخداع نفسها، ولكنها لم تستطع الثبات وأيقنت فى آخر الأمر أنه باطل ما أملت، وخيبة ما رجت، ووهم ما تخيلت، وأن العش الذى بنته فى سبحات الروح إنما هو فى الحقيقة كهف مظلم ينتظرها فيه إنسان فى صورته الوحشية الأولى، أو بالحرى حيوان على أديمه طيف إنسان! فجفلت ونفرت وارتاعت، وكان عنصر نفسها قوياً فلم تستسلم أو ترتمى حطاماً وتتكسر هشيما، فأعرضت وصدت عن «صادق» وأرسلت إليه تعلنه بالقطيعة وتحول بينه وبين قلبها وبين جسمها، وتحذره أن يعاود أمره معها أو يحاول الاتصال من جديد بها

ولكن الوحش الذى كان ينظر فريسته فى الكهف المظلم هاجه أن تفلت فى لحظة قد أعد فيها الوقود، وتلهب سعير ذلك الوقود فى كل قطعة من كيانه، ونادته غريزته أن لا بد من الفوز ولو بارتكاب الجريمة، فعمد إلى تهديدها وسطر لها الخطاب الآتى:

« أمينة » !

« لا تحسبى أمرى من الهون بحيث تنقضين وتبرمين فى حياتى

بمجرد رغبتك وحسب إرادتك . أنت لى ، قلباً وجسما ، ولو اصطف أهلك جيشاً ، وأعدوا من السلاح أشده وأقتله . فارجعى إلىّ وعودى إلى أحضانى ، وإلا فليس فى يدى غير الانتقام ، وعدته جاهزة ، وسلاحه مرهف ، وخطاباتك أمامى الآن بخط يدك ، أرسل بعضها إلى أبيك ، وأضعها فى يد زملاء أخيك بالمدرسة ، وأذيعها على صفحات الجرائد ، وفى كل صالون من جيرتك ، فتنهال فوق جسمك الذى تضنين به على قبلاتى ومتعتى ، العصى والسياط ، وينتشر العار حول اسمك ؛ فينالك من رفيقاتك الخزى ومن الراغبين فى زواجك الصد والبعد

إنى أنتظرك فى الساعة الخامسة من مساء اليوم فى مكان لقائنا المعروف . فان لم تحضرى فى الساعة الثامنة غداً صباحا سأبدأ انتقامى وتكون فى يد أبيك رسائلك ، ولقد أنذرتك فأعذرت »

(صادق)

* * *

لم تكن أمينة تترقب وقوع هذه الكارثة ، وكانت تحسب أنه يكفى أن تعلنه بالقطيعة حتى ينقطع ، وأنه حسبها ما تعانى من ألم الخيبة وصدمة الفشل

لقد كان أول حب نما فى قلبها ، وكانت فجيعتها فيه لا تقل عن فجيعة الأم الشابة فى وليدها الأول الذى لم تكن تصدق أنه يموت من بين يديها ، فأعدت له الآمال وحاطته برجاء نفسها المطمئنة

ولقد كان صادق فى نظرها شاباً وادعاً هادئاً ، ثم رأت منه جنوحا إلى تكييف العلاقة التى بينهما بصورة لا تريدها . ولم يكن يخطر ببالها أنه سوف ينحط عن هذا درجة بله درجات فيهبط من السماء التى كان يتيه فيها ملكا فيصبح مجرما كملايين المجرمين الذين يملأون فجاج الأرض !

إنها نادمة على ما فرط منها من التسرع فى مبادلتها الحب لشاب عرفته بالنظر ولم تعرفه بالفكر ولا التجربة ، ورأت فى نفسها مجرمة فى حق نفسها ، فهى تريده عاشقاً روحياً عذرياً ، ينظر اليها كزوجة المستقبل ، مع أن حبهما كان وليد النظرة ، ولم يكن ثمرة التعاطف الروحى ...

إذن هى لم تحبه ؛ لم تعشق هذا الانسان المدعو « صادقاً » ، ولكنها أحبت « محبوباً » ، رجلا ، لأن « سالبها » الروحى كان معداً « لموجب » ، بصرف النظر عن شخصية من يمثله ، فأى شاب كان قد حل محله كان جديراً بأن ينال مركزه فى قلبها .

وهذه هى الخفقة الأولى للحب ، تتكون عناصرها بسرعة البرق ، وتعيش فى قلب صاحبها بلهاء ! والسعيد من فارقته وشيكا ، والشقى من أطالت رفقتها معه وأثمرت له زواجاً ، أو عشرة محرمة ، كلاهما يفضى بحياة صاحبه إلى التعاسة

مرّ كل هذا بخاطر أمينة ، ولكنها تذكرت أن هذا الشاب الذى يكتب مثل هذا الكتاب ويتقلب مثل هذا التقلب ، لا يحجم عن تنفيذ تهديده ، فهو لا بد فاعل ما انتوى ؛ وغدا فى الصباح ستقع فى يد أبيها رزمة من الأوراق بخط ابنته التى يعتقد أنها قديسة ، والتى يعيش من أجل رفاهتها وسعادتها ، ويحوطها بحنانه وشدته كى يبعد عنها عناصر الشر والسوء

إن التفكير فى هول السعير كان ألطف وقعاً عندها من التفكير فيما عسى أن يفعل أبوها ، وهو ذلك الرجل القوى الذى يبعث الرعب فى نفس كل من حوله من نظرته ، والذى إذا قدم البيت شاع فيه السكون وعقد الصمت ألسنة سكانه ، والذى يضرب المثل بالمصلحة الحكومية التى يديرها من حيث انجاز العمل فيها والهدوء الذى يهيمن على نواحيها ، والذى يخافه أهل العزبة خوفا لعلهم — بينهم وبين أنفسهم — لا يخافون الله مثله

العزبة ! لقد مرت على رأسها ذكريات ذلك الشاب القروى الذى يسكن العزبة ، والذى اتهمه شيخها بأنه يتصل بفتاة قروية مثله ، فأحضره أبوها وجلده بالسوط حتى كاد أن يموت ، وأجبره على الزواج منها والرحيل عن العزبة !

ترى إذا كان هذا فعله بالقروى الحقير ، الغريب عنه ، فماذا هو فاعل بابنته ، عرضه ، دمه ولحمه ؟ !

أتراه إذا قرأ خطاباتها إلى صادق ، وهى تدعوه فيها « حبيبها » و « أملها » ، والتى تسهب فيها فى شرح عواطفها وما يخالج فؤادها من عشق مبرح وهوى جائح ، والتى تصف فيها سهرها الليل ومناجاتها إياه ، وتفكيرها فى السعى اليه وهجران الدار إلى لقائه ، لولا ما وضع أمامها من موانع ، والتى تذكر فى بعضها كيف حطمت هذه الموانع ولاقته ؟ ! ...

وكانت كلما تذكرت أباها عندما يدرك أن ابنته الصغيرة كانت تخدعه وتسخر من قواعده المقررة فى الدار ، وتعصى أوامره ، وتتستر بالأعذار الكاذبة لتلاقى ... عشيقاً لها ! ينتصب

شعر رأسها فزعاً وترتعش كمن مسه تيار كهربائى ، وتتساءل : يا ترى إذا رحم شبابها ، وذكر أنها كبده وثمرة حشاه ، هل يكتفى بقتلها برصاصة تودى بحياتها دون أن يطيل عذابها ؟ !

عند هذا الخاطر كانت تضعف أمينة ، فتقوم من نورها إلى ثيابها ترتديها تنوى الذهاب لملاقاته والتوسل اليه كى يقلع عما قطع فيه بعزمه ، لعله يلين ويرفق بحالها ، ولكنها سرعان ما ترجع عما نوت ، وتظهر لها خسة هذا الشاب وحقارته ، وكيف أنه لجأ إلى التهديد بدل أن يلجأ إلى الرجاء ، « وهذا الخلق من شأنه » أن يجعل صاحبه يتمادى لا يرق للرجاء والتوسل ! ثم .. كيف ترجو وكيف تتوسل ؟ وترجو من ؟ هذا الوضيع ؟ إن الموت أحب اليها من أن تفعل ، وملاقاة حتفها أيسر من تحطيم كبريائها وعيشها ذليلة يتصرف فى شأنها رجل تكرهه ، بل ذئب يشتهيها ، وهى كالأمة ، لا تملك إلا الرضاء والتسليم

ترجع فتخلع ما لبست وترتمى محطمة على الأريكة وحياتها أمامها مظلمة لا ينبثق منها نور ولو من بعيد

ثم تتذكر تهديد صادق لها بأن يعرض رسائلها على زملاء أخيها فى المدرسة ، وتتصور أخاها الشاب الكامل ، البسام ، المرح ، المعتز بقوة عقله وقوة جسمه ، فهو الأول بين أقرانه ، وهو بطل المدرسة فى الملاكمة ، وهو يعد نفسه ليدخل مدرسة البوليس ليصبح ضابطاً . كيف يكون حاله لو شاع هذا الأمر بين زملائه وأصبح عرضة للازدراء والتحقير والتعيير ؟ ستتحطم كبرياؤه ويمشى بينهم منكس الرأس عانى الجبين . . .

يا ترى هل ينتقم منها هو الآخر ، أم يكفيه ما يحل به هو نفسه ؟ إذن جنايتها مزدوجة . لقد حطمت نفسها وقتلت أخاها ! ما أكره هذا الحب . ما أبعده عما يصور الكتاب والشعراء وينطق الممثلون ويرسم المصورون ! إنه خداع وكذب ووهم يعيش فى ظلمات الرؤوس والنفوس ، حتى إذا ما برز إلى ضوء الحياة ظهر كالمسيخ المجذوم المهزول !

***

وكان الليل يهبط ، وظلامه ينبث فى الكون ، ونافذتها المطلة على الخلاء البعيد تسرق لها كثيراً من جمال الليل وجلاله ، ولكنها كانت ترى كل جمال مشوهاً وكل جلال حقيراً

لم تتناول طعاماً ، ولم تخرج من غرفتها . فهى تروح فيها وتجئ ، وترتمى على الأرائك والحشايا ، ثم تهب مذعورة كأن فى هذه المقاعد جمرات تتوقد ثم لا تلبث أن تسرع فتجلس مرة أخرى وتستسلم للتفكير ... والليل يوغل فى السير ، وكأنه يسير على صدرها بكلكله ، والأفكار تتوالى على رأسها سوداء فتاكة . . .

إنه قد ينفذ تهديده الأخير وينشر أمره وأمرها فى الصحف ، والصحف أصبحت ميداناً لنشر فضائح الناس حقيقها ومكذوبها ، ويعرف هؤلاء الناس عندئذ أن هذا (البك) الجبار الذى يشمخ بأنفه ويعتز بكرامته إنما هو أب فاسد عربيد لم يستطع أن يحتفظ بعرضه ، فما باله يريد أن يملى إرادته على الناس أجمعين ؟ ! يا له من أبله ذى غفلة ! !

وأهلها وأصدقاؤها الذين يتوددون إليها ويبدون لها الزلفى ، ويسعون لها بالحب سيزدرونها ويتنكرون لها ويصبحون ألسنة تذيع ما قد يستطيع أن ينشئه الخيال من قصتها

لقد فقدت الأب والأخ والأهل والأصدقاء ، وفقدت الكرامة ، وفقدت آمالها وسوف تعيش منعزلة منبوذة — إن عاشت — وسوف تموت ذليلة مزدراة إن عالجها الموت فأراحها ، وسوف تتقلى ذكراها على جمر القول السيئ ما دام فى الزمن أيام تمر وليال تعقبها . . .

لا مفر إذن من الموت . فلتعجل به لنفسها لعل موتها يدفن كل هذه المصائب ، وتفتدى به حياة أبيها وأخيها ، ولعل الذئب عندئذ تأخذ روعة الموت وجلاله بسفالته عن أن يستمرئ السير فى انتقامه إلى النهاية . . وقامت عندئذ إلى « صيدليتها » الصغيرة فانتقت منها « البزول » « واليود » . ولكنها تراجعت تفكر . وهل من الصواب أن تثير فتنة نائمة ؟ وهلا يتساءل الناس عما حدا بها إلى الانتحار ودفعها الى معالجة شبابها الغض بهذا الدواء النكد المشئوم ؟ وهلا يقول الناس أكثر من الحقيقة ؟ وهل تضمن هى أن يكون لدى صادق ضمير يوقظه موتها فيستحى عن الاستمرار فى سفالته ؟

الأوفق إذن أن تسعى إلى قتله ... هل تقتله حقيقة ؟ هل تستطيع ؟ إن سلاح أبيها فى متناول يدها . ولكن هل تقوى على ارتكاب هذه الجريمة ؟ أتحتمل أعصاب ساقيها السير الى داره وارتقاء درجات مسكنه ؟ وهل تقوى أعصاب يدها على حمل السلاح

واطلاق الرصاص ؟ وهل تستطيع مواجهة ما يعقب الحادث ؟ ؟

لا ، إن هذا فوق الطاقة !

إذن أين المفر ؟ وأين المهرب ؟ لا منقذ اليوم !

اندفعت إلى النافذة ، وكان الليل قد انتصف ودلف بنصفه الثانى إلى الفجر ، وسكن الكون وسجا الليل ، وكان يخيل للانسان البائس الشقى أن الله مستمع اليه

وقفت أمينة فى النافذة وساءلت ربها : « يا ترى يا آلهى كم فتاة وقفت موقفى وسقطت من تأثير هذا الهول ، ولم يعرف الناس أمرها ، فراحوا يستعدون عليها انتقامك ، ولو دروا لرحموها كرحمتك »

يا ترى يا رب أنت منقذى أم يشاء قضاؤك وقدرك أن أنحدر كالحصاة الضئيلة عند ما تراوحها الريح ، ثم تقذفها إلى المجرى ويلها الخضم فى أحشائه ؟

إنك يا رب أنزلت المعجزات فى زمن الطغيان والعصيان ، وكم أريت الانسان عجزه أمام قدرتك ، من حيث لم يكن يتصور وجودك ولا يخشى بطشك . فهل تتركنى يا آلهى فريسة أمام انسان عاجز وأنت القوى الجبار ؟

إننى أريد أن أعيش . وأنت يا رب قدرت لى العيش . أريد أن أسعد ، ولا أريد أن أشق أبى وأخى . وأحب أن أقضى عمرى شريفة لزوج كريم وأولاد أحباء .. عاونى يا إلٓهى واشملنى برحمتك ، إننى أمد لك يد الضراعة وقلبى يسبقنى الى ملكوتك باكيا مسترحما

أنت يا إلٓه الضعفاء ، يا نصير البائسين ، يا رب هذه المخلوقات جميعها أدركنى برحمتك فقد شملت رحمتك كل كائن حتى هوام الأرض وحشراتها تقدر لها الرزق وتعد لها الحماية والحصانة »

... ومرت نسمة رطبة باردة على وجهها المحتقن المتوقد فبعثت الراحة إلى أعصابها وأفسحت مكاناً للايمان بالله والاطمئنان إلى قدرته تسرى الى قلبها الخافق المعذب ونفسها الممزقة حسرات ..

وكان الفجر بدأ يشرق بضوئه الشعرى الرقيق يحمل فى جبينه ابتسامة ، ويخفى فى يده وراء ظهره الشمس المضيئة وهى قادمة تحمل الحياة ، وتحمل الأمل الجديد لكل يائس حزين

اغرورقت عينا الساهرة المسهدة المضناة وغسلت دموع اضطرابها . وارتاحت أعصابها ولمعت فى رأسها فكرة كادت أن تثب بقلبها من صدرها

إنها سترمى آخر سهم ، فأما فازت وإما يئست — واليأس إحدى الراحتين — فبقيت تنتظر مصيرها الذى يحمله لها الغيب المحجب

***

قامت تحمل هذه الفكرة مندفعة الى غرفة أخيها الشاب فأيقظته ورجته أن يستعد لسماع حديث لها هام . فقام مرحاً كعادته واغتسل وجاءها طلقاً ضاحكا . فجلست الى جواره وأخذت تسرد عليه كل أمرها ، صريحة واضحة ، فعرفته كيف ابتدأت علاقتها بصادق ، وكيف استمرت ، وكيف كشفت حقيقة نواياه وكيف هددها ، وكيف قضت ليلتها ... وسألته أن يقوم بواجبه كأخ وكصديق ومنقذ فوضت إليه أن يفعل شيئاً . ولو أن ... يقتلها !

وكأن الموضوع قد أحال هذا الشاب المرح رجلاً قوياً يستمع فى جد ورزانة ، ووجهه ينم على أن قراره يتكون فى نفسه وفى رأسه

وما إن أتمت حديثها حتى قام يربت على كتفها بيده وكأنه يعدها بانجاز ما سألته . وارتدى ثيابه فى صمت وخرج من الدار ولم تكن الشمس قد برزت فى السماء

وانتظرت أمينة المصير مستسلمة لحكم الله أعدل الحاكمين..

***

وبعد نصف ساعة رجع أخوها الى غرفتها وسألها .

— « كم عدد رسائلك ؟ »

— « عشرون ... »

— « هاك العشرين رسالة »

وألقى بين يديها عشرين رسالة أخذت تقلبها باكية مضطربة فرحة . حتى إذا ما اطمأنت الى أن رسالة منها لم تغب أخذت تمزقها وترميها وقودا لنار أشعلتها لتدفن فيها ماضيها الصغير !

وبعد ساعة كانت العربات تنقل أثاث منزل صادق وهو يسير وراءها مذعوراً لا يكاد يستطيع أن يرفع جبينه الى منزل أمينة ، فقد هاجمه أخوها بقوته وبسالته وأرغمه على تسليم الرسائل وإخلاء سكنه والابتعاد عن الحى بأكمله وإلا فهو قاتله ، وارتاع الجبان وخضع وفنيت قوته الكاذبة أمام قوة الرجل الباسل . وأدرك أن الرجل الذى لا يستطيع أن يواجه رجلاً مثله أحرى به ألا يقف فى وجه امرأة !

محمد شوكت التونى

السعادة

« لا أراك إلا مكباً على كتب الدراسة فلهذه وقت وللراحة أويقات ، وهذا انهماك قد يودى بصحتك وأنت ما تزال طفلا ، هلا تذهب معى إلى الشيخ ، إنى أعتزم زيارته الآن »

هكذا فاجأنى أخى الأكبر ، ولم تكد شفتاه تنفرجان عن آخر كلمة حتى ألقيت ما بيدى جانباً ، وسارعت للحاق به نطوى سهولاً واسعة تنفذ السير على الأقدام ، بينما ترسل الشمس علينا شواظها لهيباً لافحاً ، وقدماى تغوصان برمال محرقة تجعل مشيتى بخطوات لا اتزان بها

وما إن تراءت لنا تلك البناية ، وهى تقوم على أكمة جرداء تشرف على جانب من سهول قفراء حتى عاودنى نشاطى ، بيد أن أخى استحثنى أيضاً فلوح إلىّ بالشجرة التى تبدو إلى جانب الدار وإلى اللجوء اليها من شعاع الهاجرة اللاذع

وبرز الينا رجل استفزه هرير الكلب الملح ، وإذ عرفنا أومأ إلى كلبه فتنحى إلى ركن أقصى خافتاً عواءه ، كأنه يتلمس عذرا

رحب بنا مضيفنا العجوز واحتوانا مجلس وثير ، وثير بفراش يتألف من حصير تعلوه وسادة ومخدتان ، فتراخت أعصابى بهدوء حيث الاستمتاع بنئ عميق ، تلاشى معه عنت السفر

وانطلقت عيناى كأنهما تبحثان عن شارد فى نواحى هذا المنزل الظليل وفيما احتواه من أثاث بسيط ، وإلى هدوء هذا الشيخ ووقاره . إنه منزل رحيب ولوأنه مكون من غرفة واحدة تحيط بها أكوام الأحجرة الداثرة من آثار القرون الأولى ، لا يتصل بها من عمران سوى هذا المغار المعد لمأوى عنزاته ، وهى تبلغ العشر عدا

وفى نشوة هذا الاستمتاع أدركت مغزى اطلاق البدو اسم القصر على أى كوخ يقوم فى عرض الصحراء ، وأقرر أنهم على حق

فأية فخامة تحلم بها فى غبراء يابسة تعدل هناك حين تحضنك جدران أربعة تغدق عليك فيأها وتطمئن الى سلامتك فيها . إذن هو قصر باذخ . ويزيده رواء هـذه الشجرة التى لا ثانية لها فهى تخلع على هذا الكوخ ترفاً يتضاءل معه ترف القصور . هى مخضرة الأوراق وارفة الظلال وهى أبداً باسمة مادام كل ما يكتنفها قاتما ، ويرحب بنا المضيف فى جلال الشيوخ مخاطباً إيانا فى حكمة من وقرت ظهره السنون فتخرج كلماته متزنة فى حين تلمع أسنانه البيضاء التى لم يسقط منها سن واحدة على ما أظن

وقلما يتزحزح من متكئه ، فالى جانبه إناء الماء البارد وأمامه معدّات القهوة العربية ويرتفع قريباً منه رف مصنوع من أعواد غير متناسقة يحمل أكواماً من المخطوطات عبث البلى بأكثرها . فهذه كتب يدعوها أسفار الحكمة ، وتلك وريقات يزعم أنها تضاهى صحف موسى ، ولماذا ؟ فهى اتصلت به من جامع قرطبة بواسطة المغاربة الجوّابين

وذلك كتيب يقول إنه توارثه عن آبائه الأقدمين وهو يقسم أن القلم الذى بين أصابعه مضى عليه زهاء ثلاثين عاماً لم يبره مرة ثانية بل زامله فى عزلته طيلة هذه السنين فى حالته الراهنة . وهو يجرى عليه رزقاً متواصلاً ، إنه رائد الخير ، به يكتب الرقى للبدو ويحبر الرسائل الخاصة ويثبت به كل ما اختزن فى المغار ، وهو لم ير سبباً لتجهيز هذا المغار بباب يحول دون سرقة ما احتواه من سمن وحبوب وصوف ائتمنه عليها البدو مقابل جعل خاص

وهولاء البدو تغمرهم الطهارة . هكذا يوجه كلامه إلى أخى لأنهم لا يسألونه عن زيادة أو نقصان فى أماناتهم ولا يأخذون بها مستنداً منه . وهم إذ ينسابون مع مواشيهم فى عرض الصحراء طلباً للكلأ والماء ويعمنون فى توغلهم بأطرافها المترامية يرسلون قوافل تمدهم بالمؤونة مما ادّخروه واختزنوه عنده

وما يدرّه عليه القلم إذا أضيف إلى هذا الجعل عن الخزين هى الثروة التى يقنع بها ويحرص على الشكران عليها

واندفع يسرد علينا اطمئنانه إلى عيشه ووجهه يطفح ايناساً وملامحه تفيض بشراً وهناء واعتدل فى متكئه كمن يحاول أن يحاضر فى موضوع فكرر الشكر لله إذ هيأ له حياة وادعة ويقول : لم لا أكون مرتاحا وهذا رزق يأتينى رغداً ، وهذه عنزاتى تدر علينا حليبها ، ولنا دجاجات تغذينا ببيضها ، ونستقى ماء ناعذباً بارداً من البئر القريبة لمنزلنا ؟

البريد الأدبي

المؤرخ الألماني كونراد بورداخ

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن المؤرخ الكبير كونراد بورداخ Burdach قد توفى فى السابعة والسبعين من عمره . وبورداخ من أعظم مؤرخى ألمانيا المعاصرين ، وقد اشتهر بالأخص بمباحثه وآرائه فى تاريخ العصور الوسطى ونظمها وخواصها الفكرية والاجتماعية ، وكان مولده بمدينة كونجزبرج فى سنة ١٨٥٩ ، ودرس دراسة حسنة فى جامعتها ونال اجازة الفلسفة ؛ وفى سنة ١٨٨٤ ، انتدب للدراسة فى جامعة هاله واستمر بها حتى عين أستاذا لتاريخ الأدب الألمانى فى سنة ١٨٩٢ . وفى سنة ١٨٩٣ ظهر أول جزء من كتابه الشهير فى تاريخ العصور الوسطى المسمى « من العصور الوسطى الى عهد الاصلاح » Vom Mittelalter zur Reformation فأثار ظهوره اهتماما عظيما فى دوائر البحث ؛ واستمر فى اصداره أعواماً عديدة وترجم الى عدة لغات أوربية ؛ وتوفر بورداخ على دراسة هـذا العصر دراسة مستفيضة . وكتب عن « لوثر » بطل الاصـلاح الدينى مباحث عديدة ؛ وقام بعدة سياحات ومباحث مختلفة فى دور المخطوطات الألمانية لحساب أكاديمية العلوم البرلينية ، وأصدر لحسابها أيضاً مؤلفات همبولد ، وله فى الأدب والحياة الفكرية عدة مؤلفات هامة نذكر منها كتابه عن « ڤالتر فوجلڤايده » Walther von der Vogelweide وكتاب «علم الحياة الألمانية» Wissenschaft vom deutschen Leben وغيرها

وفى سـنة ١٩٢٧ أخرج بورداخ أعظم كتبه وأهمها وهو كتاب « الاصلاح والاحياء والحركة الانسانية » Reformation, Renaissance; Humanismus ولبورداخ رأى جديد فى نشأة حركة الأحياء فهو يرى أنها ثورة عقلية ترجع الى بواعث روحية عامة ، وأن هذه البواعث ترجع الى الاعتقاد الدينى فى السمو الآلهى للعالم والحياة ، وترجع أيضا إلى نفوذ الكنيسة والى مؤثراتها ؛ وفى رأيه أن الكنيسة قد لعبت دورا عظيما فى تهيئة أسباب الاحياء الفكرى ؛ وقد تناول بورداخ فى كتابه بالبحث المستفيض خواص الحياة العقلية فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، والتى يبحثه كبير ضوء على سير حركة الاحياء الأوربى

كتاب جديد عن مصر

المسيو كلود آفلين من كتاب فرنسا الشبان ، وهو السكرتير المساعد لنادى القلم الفرنسى ؛ وقد زار مصر منذ نحو عامين ، ورأى أن يكتب عما شاهده فى هذه البلاد ، فوضع عن مشاهداته كتاباً صدر أخيراً فى باريس وعنوانه : « النزهة المصرية » La Promenade Egyptionne

ومسيو آفلين كاتب ذلق خفيف الروح ، ولكن الوقار يطبع أسلوبه ؛ فهو قد كتب عن مشاهداته فى مصر مجلداً يبلغ نحو ثلثمائة وخمسين صفحة ، وضمنه كثيراً من الملاحظات

أما زوجى فهى تشاطرنى هذا الهناء وهى وأنا عجوزان طال بنا انتظار الموت وهو إذ يغشانا أحدنا أو كلينا ألفانا على أهبة للقاء الله

يا ولدى (يخاطب أخى) إذا حان وقت الصلاة أنزوى إلى محرابى هذا ، وإذا شعرت بالسأم فهاهى ذى كتبى . إنها تحوى كل شيء . إنها عندى بمثابة عالم كامل

وأزيدك اطمئناناً علىّ بأننى لم أشك مرضاً ولم ألق ولم أتعرف قط إلى رجل السراى فى كرسيّه وزهوه حتى ولا أدرى شيئاً عن أحوال مايطلقون عليها من أسماء ، حكومة أو دولة أو حكومات وعساكر فأنا بعيد عن الناس قريب الى الله سعيد بلقائه

وفى عودتنا رأيت أخى يهز رأسه غير مرة يردد كلمتى : إنه سعيد ! إنه سعيد !

(عمان) (جار الصحراء)

والنكت الظريفة ، ولكنه لم يدع فى كتابه أنه أصبح بهذه الزيارة أعرف الناس بمصر والمصريين ، بل هو يصارحنا فى مقدمته بأنه يكتب متهيباً لأنه لم يحسن معرفة مصر ، وأن مصر لا تعرف فى زيارة أو زيارات ، وإنما لابد لمعرفتها من وقت ودراسات كثيرة

ومما يجدر ذكره أن مسيو آڤلين لم ينحدر الى شىء من ذلك الاسفاف الذى رأيناه فى كتابات بعض الفرنسيين الذين زاروا مصر فى العهد الأخير ، ولا سيما فرانسيس كاركو الذى يصور مصر فى كتاباته أقبح تصوير ، ويزعم أنها من أكبر مراكز البغاء فى العالم ، ولا يجد لأحاديثه سوى المواخير والمنازل السرية والمقابلات الغرامية المزعومة مع بنات الباشوات ... الخ ؛ هذا الاسفاف الذى ينحدر إليه فرانسيس كاركو وأمثاله يتعفف عنه مسيو آڤلين غاية التعفف ، ولا يطالعنا إلا بأحاديث شائقة ظريفة تفيض عطفاً وحباً

سفينة جوية هائلة

يظهر أن عجائب الاختراع البشرى لن تقف عند حد ، وأننا قد نشهد فى المستقبل القريب سفناً جوية جبارة تشق جو المحيط ، كما نشهد اليوم السفن المائية الجبارة تشق عباب المحيط ؛ فنى أنباء أمريكا الأخيرة أن المستر شولر كلنهانز مهندس الشركة الجوية الكبرى التى أنشأت أهم وحدات الأسطول الجوى التجارى الأمريكى ، قد وضع تصميما جديدا لسفينة هوائية جبارة لا تقل فى حجمها عن سفينة بحرية حقيقية

وقد شرح المستر كلنهانز تصميمه أمام مجمع العلوم الجوية فى سان فرنسيسكو ، وقال إن تكاليف السفينة الجديدة تبلغ نحو أربعة ملايين جنيه ، وأنها تستطيع أن تخترق المحيط من نيويورك إلى ليفربول فى إحدى عشرة ساعة فقط ، ويستغرق صنعها على الأقل أربعة أعوام من العمل المتواصل

ويقول المستر كلنهانز إن الأمر ليس خيالاً وإنما هو مشروع على قتل بحثاً ودرساً من الوجهة الفنية ، وتأكدت صلاحيته وأمكان تحقيقه بالتجارب العملية ، وسيكون وزن السفينة الجديدة نحو ١٥٠٠ طن ، وطولها نحو ٣٧٥ قدما ، ومحيطها نحو ٥٥٠ قدما ، وسيجهز محركها بقوة مائتى ألف حصان ، ويمكن أن تحمل مائة عامل ومهندس ، وخمسمائة راكب ، وخمسمائة طن من الوقود لتكفى اختراق المحيط ، وخمسة وعشرين طناً من العفش

وتطير هذه السفينة الجبارة بسرعة ثلثمائة ميل فى الساعة ، وعلى ارتفاع اثنى عشر ألف قدم

ويقول مستر كلنهانز فى ختام تقريره إنه يكفى وجود المال اللازم ليخرج مشروعه فى الحال إلى التحقيق العملى

وفاة كاتب روسى كبير

توفى أخيراً فى براج عاصمة تشكيوسلوفاكيا الكاتب والقصصى الروسى الكبير فاسيلى نميروفتش دانشنكو بعد حياة طويلة حافلة ؛ وكان مولد هذا الكاتب الذى يمثل العهد القديم بكل ما فيه منذ ثلاثة وتسعين عاما ؛ وكان بدء ظهوره فى عالم الأدب منذ خمسة وستين عاما أيام الحرب الروسية التركية ، إذ كان جنديا ملتحياً ، وكان يكتب فى الصحف الروسية فصولا شائقة عن الحوادث العسكرية التى شهدها ؛ واستمر دانشنكو أعواما طويلة على وصف الأحداث والمغامرات العسكرية حتى أصبحت له فى هذا النوع من الكتابة براعة خاصة ؛ وكان له فى النظم جولات حسنة ؛ حتى كان يلفت الأنظار بقصائده الحربية ، وكان مثله الأعلى فى الشعر الشاعر الانجليزى الكبير « بيرون » حتى سمى فيما بعد « بيرون روسيا » وذاعت شهرة دانشنكو بنوع خاص حينما أخرج قصته « نسر الجبل » Berg Adler

وكان لدانشنكو فى بلاد البلقان شهرة خاصة لأنه حارب من أجل حرياتها ضد الترك ؛ وفى سنة ١٩٢٣ ، ذهب إلى بلغاريا لمناسبة احتفالها بعيد استقلالها الخمسينى ، فاحتفت به احتفاء عظيما ، وكان يومئذ فى الثمانين من عمره ، ولكنه كان شيخاً وافر النشاط والانتاج

وكان دانشنكو يعيش فى أيامه الأخيرة فى تشيكوسلوفاكيا متربضاً مستشفياً حتى وافاه الأجل المحتوم

أسبوع المؤلفين

قام نادى القلم فى زيلندة الجديدة بمشروع طريف لترويج الكتب ، سماه « أسبوع المؤلفين » وخلاصة المشروع أن تعرض مؤلفات الكتاب وصورهم مدى أسبوع فى المدن الهامة مثل ولنتون العاصمة وكريستشرشى ودندين وغيرها . وقد افتتح الحاكم العام هذا المعرض الأدبى وألقى خطاباً رسمياً ؛ وألقى آخرون من أكابر الكتاب خطباً أخرى ؛ وكانت النتائج باهرة ، إذ كانت المعارض فى جميع المدن تغص بالزائرين والمشترين ؛ وقد بيعت كميات كبيرة من الكتب فى مختلف الفنون

وتلاحظ جريدة التيمس الأدبية التى ننقل عنها هذا الخبر ،

أن لهذا المشروع فوائد معنوية عظيمة فوق فوائده المادية ؛ ذلك أنه يبث إلى الجمهور روح التشجيع للحركة الفكرية ، ويعاونه على الاطلاع على مداها وعلى حسن تقديرها . فهل لكتابنا أن يفكروا فى تنظيم أسبوع « للمؤلفين المصريين » ؟

معركة العقائد فى ألمانيا

تضطرم فى ألمانيا منذ قيام الحكم الهتلرى معركة دينية خفية بين النظام الجديد وبين الكنيسة البروتستانتية ؛ ذلك أن شعائر النظام الألمانى الجديد تميل إلى الوثنية والجرمانية القديمة ، ويرى قادة ألمانيا الجدد أن يسحقوا كل نفوذ للكنيسة فى حياة ألمانيا العامة . وترى الكنيسة من جانبها أن هذه السياسة خطر على نفوذها وعلى العقائد التى يرتكز إليها هذا النفوذ ، وتحاول أن تقف فى وجه النظام الجديد . وفى أنباء ألمانيا الأخيرة أن السلطات الكنسية فى بروسيا وبافاريا وبعض أقاليم أخرى أذاعت من منابرها خطاباً على المؤمنين تطلب فيه إليهم ألا ينزلوا عن تعاليم النظام الهتلرى وأن يحرصوا على عقائدهم من الفساد والدنس . وقد وقع هذا الخطاب الأسقف كوخ أسقف أومينهاوزن والأب مولر رئيس كنيسة دالهم . ويقول الخطاب إن التعاليم الهتلرية تنافى تعاليم الانجيل والمسيح . وقد اهتمت الحكومة لهذه الحركة الجديدة من جانب الأساقفة وذاع أنها تنوى دعوة البرلمان إلى الانعقاد فى مدينة ورمس حيث ظهر لوثر أيام اتهامه بالكفر ، وحيث أحرق الأوامر البابوية . وهكذا نرى أن المبادئ الهتلرية ما زالت تصطدم من بعض نواحيها بالمبادئ والعقائد القديمة

دور العذاب

تعتبر ملاجئ الأحداث والعجزة فى الأمم المتمدنة من مظاهر الرقى الانسانى . وفى فرنسا كثير من هذه الملاجئ . ولكن كاتباً كبيراً هو مسيو الكسى دنان نشر أخيراً كتاباً عن هذه الملاجئ . سماه « دور العذاب » Maison de Supplics ؛ ذلك لأن هذه الملاجىء تعتبر فى نظره جحيما للأحداث ، ولا تشرف السلطات التى تقوم على إدارتها ، وهو يصف لنا النظم العسكرية الشائنة التى تفرض على الصغار فى هذه الدور ، ويقول إنها أشنع ما يمكن ما تصوره ، وأسوأ ما يمكن أن يؤثر فى هذه النفوس الناشئة ؛ ويقارن المؤلف هذه الحالة السيئة بما تتخذه بعض الأمم الأخرى ولاسيما بلجيكا لتقويم الاحداث وإصلاحهم . وقد كان لنشر هذا الكتاب وقع عميق لدى السلطات ذات الشأن

جبل الأهرام

تكاد لا تجد فى مصر مثقفاً يجهل قرية من قرى لبنان ، ولا خميلة من خمائله ، ولكنك تجد فى إخواننا أدباء لبنان من لا يعرف إلى اليوم إن كانت الأهرام جبالاً أو قبوراً ! فقد قرأنا للسيد فاضل سليم عقل مقالاً يتهم فيه أديبين مصريين بأنهما سرقا فى مقدمتهما لرحلة ابن بطوطة مقدمة كتبها الأستاذ فؤاد البستانى لهذه الرحلة . ويقول فى آخر مقاله : « وقد كنت أرغب شخصياً من كل قلبى أن أنقل نص المقدمتين إلى هذه الصفحة ، حتى يطلع القراء كلهم على هذه الجناية ... ويحكموا بأنفسهم ، بعد التفكير والاختبار ، لا بعد الهوس والتطبيل ، فى المستوى الأدبى ، والزعامة الأدبية ، التى لا تزال حائرة بين جبل الأهرام الخجول وقمم لبنان الشامخة .... »

وحسبنا من التعليق على هذا الكلام أن نعتب على السيد الكاتب أنه لم يقرأ تاريخ مصر ، ومصر على (ضعفها فى الأدب) لا تزال أقوى جزء من أجزاء الوطن العربى الأكبر ! !

الكتب

التربيب

تأليف الأستاذ حسن نجيب المصرى بك
وكيل مجلس الشيوخ

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

يصرح الأستاذ الفاضل مؤلف هذا السفر أن كتابه مجرد ملاحظات استنتجها من التجارب الشخصية وخبرة من يعول على رأيهم وصحة حكمهم ؛ ويبدى صراحة أنه لا يبرز للناس قواعد جديدة فى التربية . وكنا نود أن لو كفانا تصريحه هذا مؤونة التعليق الفنى على الكتاب لولا مقام المؤلف الفاضل فى المجتمع المصرى ، ذلك المقام الذى يحملنا — كمربين قبل كل شىء — على أن نتفهم الكتاب ونقول فيه كلمة نقر بها الحق ونرضى بها الضمير

إن مجمل ما يقوله الناقد فى ذلك الكتاب أنه يشمل عدة مقالات كتبت فى ظروف مختلفة عنونها كاتبها بعنوانات وثيقة الاتصال بالتربية ، بينما المقالات نفسها لم تعالج علاجا فنياً دقيقاً أى ناحية من نواحى التربيب ؛ وأرى فوق ذلك أن هذه المقالات مجتمعة لا تكوّن وحدة علمية جديرة بالعنوان الذى جعله المؤلف لكتابه ، وأقصد بذلك أنها تفقد أسباب الاتصال بعضها ببعض على نحو يجعلها بحثاً جديداً يهم المشتغلين بشئون التربية . ولقد لفت نظرى أن يفرد الكاتب فصلا عن التربية والتعليم يقول فيه أن المعلومات التى يتلقاها التلاميذ فى المدارس لا تؤثر فى سلوكهم ، فهى فى نظره تعليم بعيد عن التربية . ويقول كذلك إنه قد استفاض خلط التعليم بالتربية ، وكأنه بكلامه هذا يريد أن يقيم سداً منيعاً بين التعليم والتربية

والحقيقة أنه لا يوجد حد جلى بين التعليم والتربية ، وأن ما يقول به البعض من أن التربية تشمل التعليم كما يشمل الكل الجزء ، إنما يحتاج إلى تدليل وتدعيم . أما الواقع والمعقول فهو أن كل من يعلم غيره فهو يربيه فى نفس الوقت ؛ ونحن لا نستطيع بأى حال أن نعلم دون أن نكون مربين إلى حد معين ، ولكننا نستطيع أن نربى دون أن نباشر عملية التدريس مباشرة فعلية . والآراء الحديثة أميل إلى تحديد التربية بغاياتها لا بوسائلها التى منها التدريس . والواقع أننى وأنا أعلم تلاميذى انما أترك بطريقة غير مباشرة آثاراً خطيرة فى خلقهم ، وطرق تفكيرهم ومثلهم العليا دون أن أقول لهم انى أربيكم أو أعدكم إعداداً خاصاً . ذلك أن سلوكى معهم وموقفى إزاء سلوك بعضهم مع بعض ، وتعليقى على بعض الدروس الوجدانية كالتاريخ والتربية الوطنية لا شك تؤثر فى المتعلمين بحيث تكون وسائل لاعدادهم لغايات بعيدة هى السلوك الطيب القويم فى الحياة المستقبلة

***

لنترك ذلك الخلاف ولنعرض لأمر آخر هو أن المؤلف لم يعالج الموضوعات علاجاً فنياً دقيقاً ، ولست أجد فى التدليل على ذلك أبلغ من تلخيص فصلين من الكتاب تلخيصاً أميناً دقيقاً ؛ الأول عنوانه (كيفية التغذية) يقول فى أوله إن غذاء الطفل يبتدئ وهو جنين فى رحم أمه بالسُّحد والحولاء والغرس . وبعد الوضع يكون الغذاء بالرضاع سنتين ، (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) ، والتغذية بعد الفطام يشترك فيها الوالدان حتى يبلغ الطفل أربع عشرة سنة . وسنة الكون لا تكلف الانسان اختيار المأكولات ، فنظامها الدقيق ينتج الأشياء فى وقت حاجة الناس إليها . ويختلف بعض الاطباء والفلاسفة فى نوع غذاء الطفل ، فمنهم من يحرم عليه الحلواء والفطير والفاكهة ومنهم من يحض عليها ، وإنى لا أرى مجالاً لهذا الاختلاف الذى ينحسم باتباع الاعتدال والقسط

ومراعاة الظروف والأحوال ، وأما من أشار منهم باعطاء القليل من الأنبذة فانى لا أرى رأيه ، وأما المشروبات الروحية الأخرى فانها تهدم الجسم وتسلب العقل . وهنا يقول المؤلف كلاماً طويلاً فى مضار الخمر ويستشهد بالآية الكريمة : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » وبعد هـذا يقول ما يأتى : « حسنوا تقويم الولد جنيناً ، وأنشزوا عظامه وأنبتوا لحمه رضيعاً ، وعللوا بالغذاء ليجزأ عن اللبن فطيما ، وناولوه الأكل أدنى تناول فصيلا ، وأحسنوا غذاءه اللذ صبياً ، وأرفوه يافعاً ، وأعظموه مراهقاً ، ثم ألقوا حبله على غاربه » وبعد أن فصلنا للناس نختم المقال بهذه اللآلئ القرآنية :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق الخ »

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون »

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً »

هكذا يعالج الأستاذ الفاضل موضوعاً خطيراً كهذا ، فيقول كلاماً هو بعينه ما يعرفه المتعلمون وغير المتعلمين والمتربون وغير المتربين ، مع أن البحث العلمى يستلزم الاجلاء عن الوسائل المؤدية الى هذه الغايات التى ذكرها المؤلف ، فيبين لنا بطريقة عمليـة كيف ننشز عظام الولد وننبت لحمه رضيعاً الى آخر ما ساقته هـذه الوصايا الذهبية والحكم البالغة فى ذلك اللفظ الخالب والسحر الغالب . عفواً سيدى الفاضل ، فالتربيب شىء عملى يضعه أهله بعيداً عن استمراء الألفاظ وإضاعة الوقت فى صناعة العبارات ، الأمر يا سيدى أخطر من هذا وأدق ، والتخصص وحده هو الذى يخرج للناس الكتابة الفنية التى يحتاجون اليها فى الحياة حاجة عملية

***

وثمَّ فصل آخر عنوانه (الغريزة) ، يعالجها الكاتب الفاضل فى صحيفة واحدة من ذلك السفر الضخم ، فلا يعدو أن يحددها بأنها الأعمال غير الارادية ، ثم يفرق بين العقل والغريزة فى هذا الكلام المنمق الجميل :

« العقل حر والغريزة عبد ، العقل علم والغريزة حدس ، العقل بصير وهى شعور ، العقل نور يتدرج والغريزة برق يخطف ، العقل ضوء النفس وهى سنا الحس ، وإذا العقل وقف للتدبير فهى تقفز للوثب والمسير »

فهل يكفى ذلك القصيد المنثور لبحث الغريزة فى كتاب عنوانه (التربيب) ، وأين يا سيدى علاقة الغرائز بالتربية وأثر التربية فى تعديلها وعلاقة ذلك كله بحياة الأطفال ؟ ؟

***

وأخيراً لا بد من الاشارة هنا إلى أن الكاتب الفاضل يهتم اهتماماً شديدا بحشر الكلمات اللغوية فى كتابه كما يصنع كتاب المقامات ، ثم يجاوز هذا إلى شرح هذه الألفاظ والتعليق عليها ، وهذه المحاولات لا شك تجعل الموضوع مفككا وتصرف الكاتب عن المعانى ، ولا سيما إذا عرفنا أن الأسلوب العلمى يتميز عن الأساليب الأدبية الأخرى بالسهولة وعدم التكلف فى البحث عن الألفاظ

هذا ما نقوله عن الكتاب ، أما شخصية المؤلف ذاته فانها تبدو من خلال كتابه رزينة وقورة رائدها الخير وغايتها إسعاد المجتمع .

عبد الفتاح السرنجاوى